

## الجزء الثاني

### قيم جديدة لأدبنا المعاصر

ألقيت هذه المحاضرات على طلاب قسم  
الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث  
والدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٦/١٩٦٧ .

obeikandi.com

## مقدمة الجزء الثاني :

سبقت لى محاولة جادة ، فى إعادة النظر فى تراثنا الأدبى بوعى جديد وفكر حر ، يلائم كرامتنا العقلية ومستوانا الفنى ، ونظرتنا المكبرة لمكان الأدب فى الحياة .

وقد هدت المحاولة لى « قيم جديدة للأدب العربى » كشفت عما لا يزال يسيطر على فهمنا لتاريخنا وذوقنا لأدبنا ، من أحكام نقدية وقيم أدبية لتقاد قدامى نظروا فى الأدب بأذواق عصورهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم .

كما كشفت عن روائع من تراثنا ، ألقي بها مؤرخو أدبنا ودارسوه فى منطقة الظل ، فغابت عن شبابنا فيما تلقوا من نصوص الأدب العربى ، ثم ما كادوا يتصلون بالأدب الغربى حتى جحدوا أدبنا جملة ، ولم يعودوا يجدون فيه سوى ركام من آثار عقليات متحجرة ونفوس مغلقة ووجدان أصم .

والذى هدت إليه تلك المحاولة الأولى ، يغرى بالمضى فيها ومتابعة النظر فى أدبنا المعاصر ، لعلنا نستخلص له قيماً جديدة يصح بها فهمنا للأدب وإدراكنا لدوره القيادى فى حياة الشعوب والأمم .

\* \* \*

ولا يغيب عن بالى هنا، أن ما أعرضه من قضايا أدبنا المعاصر وأقدمه من قيم له وموازن ، مجالاً لاختلاف وجهات النظر ، فلتكن هذه المحاولة إذن، عرضاً لوجهة نظر لى لا أصادر حقاً سوى فى أن يقف منها موقف التردد أو الرفض أو المعارضة ، ودون أن تعنى أنها الكلمة الأخيرة الحاسمة فى قضايا أعلم أنها ستظل أبداً مجالاً لجديد يُقال . . .

والله المستعان . . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة

١٣٨٩ ، ١٣٨٦

١٩٧٠ ، ١٩٦٧

obeikandi.com

( ١ )

## المعاصرة والزمان

- وجدان العصر وتراث الماضي
- المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين
- أدبنا المعاصر ومنطق التطور
- أصوات . . . وأصداء



## وجدان العصر وترات الماضي

وجداننا المعاصر مشحون بميراث ماضيه ،  
وأعتقد أن الأديب الذي يفقد اتصاله بماضي  
أتمته ، عاجز تماماً عن التعبير عن وجودها الحي ..  
ولا يكسب صفة المعاصرة من الأعمال الأدبية  
سواء منها ما أوغل في العصور الخوالي وما كان  
من البضاعة الحاضرة ، إلا ما نصغى فيه إلى  
نبض حياتنا بأبعادها المترامية .

obeikandi.com

أول ما يعرض لنا من قضايا أدبنا المعاصر ، هو تحرير المفهوم الشائع لمعنى المعاصرة في مجالها الزمني ، إذ يحسب كثير منا أنها تعنى في الأدب ، أن يُشغل بحاضرنا وحده دون التفتت إلى ماضيه القريب أو البعيد .

وعند هؤلاء أن الأديب لا يمكن أن ينتمى إلى العصر ويعيش بوجوده إلا إذا كَفَّ تماماً عن الالتفات إلى الأمس ، وتخلص من تأثير تراثه ، وحصر اهتمامه كله في الحاضر والمستقبل .

وحياة الأديب المعاصر بوجودان زمنه ، ليست موضع جدال أو مناقشة ، ولا يجوز في رأبي أن تكون مثار خصومة أو خلاف . لكن هذا الوجدان العصري مشحون بميراث ماضيه بحيث لا يمكن عزله عنه أو بتره منه . وقانون الوراثة يحتكم هنا في حياة الأديب كما يحتكم في حياة كل كائن حي ، مادياً كان أو معنوياً .

وليس في الإمكان أن تصور الأديب المعاصر نباتاً شيطانياً بلا جذور ضاربة في أعماق الزمن ، إلا إذا تصورنا أن إنسان العصر لا يمت بأذى صلة إلى الإنسان الفطري الأول ، في عصور ما قبل التاريخ .

وعلماء الحضارة المحدثون ، يشغلون باكتشاف آثار خطوات البشرية على درب الوجود ، دون أن يقال إنهم انفصلوا عن عصرنا .

وقد وقف « داروين » على قمة عصره ، وهو يوغل في الماضي السحيق متتبِعاً نشوء الأنواع ، وملمتسماً الظواهر البيولوجية لما قبل عصر الإنسان، كى يقدم نظريته في التطور ، في كتابه ( أصل الأنواع ) الذى نشره سنة ١٨٥٩ بعد عشرين عاماً من الدراسة والتأمل ، ولم يقل أحد إنه رجعى يعيش مع بقايا الحفريات البائدة ، بل الذى قاله مؤرخوه إنه يمثل ذروة التقدم العلمى لعصره الذى دخل تاريخ العلم باسم « عصر النشوء والارتقاء » .

و « ماركس » الذى فتن جيله وأجيالاً بعده بنظريته في التفسير المادى للتاريخ ، لم يصل إليها إلا بعد طول تأمل في ماضى سير الزمان بالشعوب والجماعات ، والنظر الثاقب في الدور الذى لعبه العامل الاقتصادى على مسرح التاريخ .

ويشهد عصرنا علماء الأحياء عاكفين في مختبراتهم ومعاملهم على فحص الخلية الأولى قبل أن تنقسم، دون أن يرى فيهم بقايا متخلفة من عصورٍ خلت .  
والأمر كذلك بالنسبة إلى أصحاب الفن الأدبي ونقادهم ودارسيه : إنهم يستطيعون أن يغوصوا في أعماق الوجدان الإنساني المعاصر ويلتمسوا أخفى ما يطوى من ميراث الحقب الغابرة ، ويتابعوا صراع ذلك القديم العتيق مع الحديد الطارىء ، دون أن يحق لأحدٍ أن ينسب عنهم المعاصرة أو يدعى انتهاءهم إلى زمن بائدٍ سحيق .

• • •

ومهما يوغل الأديب المعاصر في الماضي البعيد لتتحقق له ملاسة التجربة الأدبية والاندماج التام في مسرح الأحداث التي اختارها من القديم موضوعاً لعمله الأدبي ، بل مهما يغيب عن الزمان والمكان في استغراقه الوجداني فيما يكتب عنه من العصور الخوالي ، يظل دائماً على اتصال حتمي وثيق بعصرنا الذي نعيش فيه .  
وليس من الضروري أن يشعر بهذا الاتصال أثناء استغراقه في عمله وملاسته للواقع القديم ، بل يتحقق هذا الاتصال تلقائياً دون أن يدري ودون قصدٍ عامد ، لأنه في وقفته على القديم إنما يتجه إليه قسراً بتأثير مزاجه وشخصيته ، ولا مفر من أن يقع ظل نفسه على كل ما يقرأ من حديث الزمن الغابر . وهو فيما يكتب لا يستطيع أن يصمم سمعه عن أصداء العصر التي تلاحقه حيثما اتجه . وإذا يلتمس في عزلته عن عصرنا معايشة الأحداث الماضية التي استوقفته ، يعضى إلى هذه العزلة بوجدان تلقى حظه المحتوم من مؤثرات البيئة والعصر ، ويكتب فيها بقلمٍ من صناعة هذا الزمان ، ومن ثم يُطيل على الماضي من أفق عصرنا ، فتلوح له الرؤى البعيدة على مسرح وجودنا الحى .

ولا يدخل في حسابنا هنا ما يكتبه كاتب في زماننا ، عن قيس وليلى مثلاً ، أو عن عنترة ومهلل ، كما كتب أبو الفرج الأصبهاني في أغانيه أو شوقي في مجنون ليلى ، لأن آلية النقل أفقدته عنصر الأصالة التي هي جوهر العمل الأدبي .

• • •

وإذا سألت سائل : أليس في زمننا هذا بيئات منعزلة عن روح العصر ، ومن ثم يبقى أديبها بمعزلٍ عن أصداء الحديد ؟

فالجواب : بلى ، على صعوبة تصور هذه العزلة في عصر «الترانستور» .  
 وفرجى النظر في أدب هذه البيئات إلى موضعه من الحديث عن « المعاصرة  
 والمكان » لتلتفت إلى أدياء يعيشون في عصرنا بوجدان مغلق وحس أصم ، وهذا  
 موقف يستحق أن نستبين آثاره في رصيد أدينا المعاصر ، لكي يعطينا ملامح  
 طائفة من أبناء هذا الزمن ، تعيش في غيبوبة عن حاضرنا وتكرراً راجعة إلى ماضي  
 تتجمد عنده فلا تحس سير الزمان .

وأميل إلى القول بأن مثل هذا الأدب لا يُحرّم صفة المعاصرة ، من حيث تعبيره  
 عن ظاهرة اجتماعية تلفت مؤرخي الحضارة وتمنحهم فرصة النظرة الشاملة التي  
 يصدق بها قياسهم لمدى إحساس الجماعات بسير الزمان ، كما تمنح نقاد الأدب  
 فرصة الرؤية الواضحة لأبعاد الحياة الوجدانية للأمة ، فلا تفلت زاوية من زواياها .  
 لكن هناك ملحظاً لا يجوز أن يغيب عن بالنا ، وهو أن قبول المعاصرة لمثل  
 هذا الأدب لا يعنى أنه أدب عصرى ، بقدر ما يعنى أنه معبر عن رواسب رجعية  
 في مجتمعنا المعاصر . وإذن فليس من الحق أن نعطي هذا الأدب ، صفة التمثيل  
 لروح العصر الجديد ، وإنما نأخذ منه وثائق أدبية مسجلة لرواسب يحاول العصر  
 أن يتحرر منها .

وكثيراً ما يخذعنا في العمل الأدبي أن يضح بأصداء العصر ، فنسرع بالتهليل  
 لعصريته دون أن نمهل لنستبين ما وراء هذه الأصداء من حيس العصر وروحه .  
 وأقرب ما يحضرنى مثلاً للأدب الذى يرتدى زى عصرنا ويخفى تحته روح العصور  
 الوسطى ، ما يغمر السوق الأدبية من قصص وروايات عن المرأة العربية الجديدة ،  
 حيث نراها ترتدى أحدث الأزياء ، وترتاد النوادي وتختلط بالرجال ، وتركب  
 السيارة والطائرة ، وتتحدث بلغة الفرنجة ، ثم تمضى بها القصة لتسلبها وعيها بمجرد  
 أن تواجه تجربة الخروج من قفص الحريم ، فتسقط في شباك أول صائد لقيها  
 في غفلة من حارس عفتها .

مثل هذه القصص لا تُحمل على الأدب المعاصر إلا من حيث دلالتها على  
 ما لا يزال في المجتمع من نظرة رجعية إلى المرأة الجديدة بعين حارس القفص وحامل  
 أقفاله في عصر الحريم .

دون أن يغيب عنا أنها أبعد عن روح العصر ، من قصة فتاة بدوية تركب الناقة وتعيش في الحيام ، وملتء يقينها أنها تملك فضيلتها ، وأنها حين تسقط أو تمتنع على أى إغراء وغواية ، فيبدها لا بيد عمرو .

وكما نتقى الخلداع بزيف العصرية فيمن ينتمون من أدبائها إلى زوح العصور الماضية ، نتقى وهم الرجعية فيمن يطلون من أفق عصرنا على غابر سحيق موغل في القدم ، على نحو ما يفعل مؤرخ الحضارة ، حين يطل بعقلية اليوم ، على طفولة البشرية في ماضيها البدائي . . .

وتبرز هنا ، على سبيل المثال ، أساطير الشعوب نبعاً سخياً للأدب المعاصر ، يصله بأعمق ما في ماضيه الغائر تحت طبقات الحقب والدهور ، دون أن يفقد حيوية المعاصرة وملامحها المميزة .

كما تبرز أيضاً قيمة التراث الأدبي والفكري بوجه عام ، من حيث هو كشف للملامح شخصية الأمة عبر الأجيال ، وصدى لنبض وجدانها الحي على امتداد مسار الزمن .

والدول الطارئة المحدثة هي وحدها التي يحق لها أن تستهين بقيمة التراث وتزعم أنه أكفان موقى يفسد ريحها مناخ العصر ، مستجيبةً في هذا الموقف لما تشعر به من عقدة النقص إذ يعوزها ماضٍ في التاريخ يعطيها تراثه . وأما الشعوب العريقة فهيئات أن تعى ذاتها دون إدراك عميق لمقومات أصالتها التي حققت بها وجودها على مسار تاريخها الطويل ، بل هيئات أن يصح وجودها المعاصر ما لم يكن قائماً على أساس من خصائصها الذاتية ، المادية والمعنوية ، التي تميز شخصيتها وتعطيها طابع الأصالة وسهات العرافة .

**وروسيا تقدم لنا تجربتها في هذا الموقف :**

لقد حاولت بعد نجاح ثورتها أن تقطع كل صلة لها بالماضى لتبدأ تاريخها من يوم انتصار الشيوعية . وأخذت هذه المحاولة في مجال الفن ، الاتجاه الذى نادى به « المستقبليون » فى صراعهم مع « الأمسيين » لم يستثنوا منهم الرواد الكبار الذين مهدوا بأفلامهم للثورة وأعدوا لها ضمائر الجماهير وعبثوا وجدانهم ، من

أمثال بوشكين وتولستوى ودستوفيسكى وتشيكوف وجوجول ...

لكن المحاولة ما لبثت أن اصطدمت بما فى الوجدان الشعبى المعاصر من تراث ماضيه ، فارتدت بعد أن بلغت أقصى مداها فى عهد ستالين ، وظهر جيل جديد من الأدباء المعاصرين ، يعترفون بالأبوة الروحية لكُتّاب ما قبل الثورة ، ويجدون فى بعث التراث القديم دون أى يقفوا به عند مرحلة الإرهاص الثورى ، مدفوعين إلى ذلك بإيمانهم بأن وجودهم المعاصر لا يمكن أن يكون قد بدأ من فراغ .  
وأكاد أطمئن إلى أن الشاعر والكاتب المسرحى الكبير « فلاديمير ماياكوفسكى » - ١٨٩٣ : ١٩٣٠ - زعيم المستقبلين ورائد مدرستهم فى الأدب والمسرح ، قد ساوره الشك فى سلامة الدعوة التى عاش عمره يبشر بها ويناضل عنها ، ولعل محنته بهذا الشك قد أرهقته فى المرحلة التى رفض فيها الحياة فألقى سلاحه وأنهى حياته ، بعد ثلاثة عشر عاماً من انتصار الثورة الشيوعية .

• • •

وأعتقد أن الأديب الذى يفقد اتصاله بتاريخ قومه وتراث أمته ، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر ، لأن فقدان وعيه لشخصيتها يجعله أجنبيّاً عنها غريباً عليها ، لا يتمى إليها إلا الانتفاء الرسمى الذى يشبه انتفاء الطارئين عليها من المستوطنين والدخلاء .

obeikandi.com

## المناح الفكرى لأدبائنا المعاصرين

نحن جميعاً أبناء جيل أعوزه العناصر الثقافى  
والفكرى فى مرحلة التلقى والتكوين والتأثر :  
فينا من تلقى زاده الأول من نبع عربى شرقى  
صميم ، حصّنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة .  
وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبى ، وقد  
أمضى مرحلة الخضانة العقلية والتكوين النفسى  
فى بيئة عزلته عن وجود أمته .

ودخلنا الميدان الأدبى ونحن نحمل ، رضينا  
أو كرهنا ، ميراثنا المحتوم، وهكذا التقينا ونلتقى  
وكأننا غرباء .

obeikandi.com

وهذا المفهوم للمعاصرة ، في مجالها الزمني ، يلفت إلى ظاهرة واضحة في المناخ الفكري لأدبائنا المعاصرين ، وأغنى بها فقدان التعاصر بين أدباء من العرب ينتمون زمنياً إلى عصر واحد ، وينتمون فكرياً ووجدانياً إلى عصور متباعدة وبيئات متنافرة شتى .

وقد أتيج لي أن أشترك في كثير من مؤتمرات أدباء العرب وندواتهم في أقطار وطننا الكبير ، كما أتيج لي أن ألتقي بهم في حلقات دراسية ومؤتمرات دولية بأوروبا ، فكانت ظاهرة فقدان التعاصر بيننا تسيطر على جموعنا هنا وهناك وهناك ، وبدا بوضوح أنه ما من صاحب قلم إلا أخذ مكانه المحدد في الصراع بين شدّة الرجعية وجذب التقدمية ، بحيث لا يشق على مراقب أن يلتقي في الجمع المحتشد حزينين متباعدين ، يتحمس أحدهما لقديمنا ولا يميل من اجترار ذكرياته والتغني بأبجاده والتفاخر بأبطاله ، والفريق الآخر قد طرح وراء ظهره كل ما مضى وفات ، مصغياً بكل وجدانه إلى دعاء الحاضر ، مشدود البصر والعقل والوجدان إلى أمم من الغرب يدين لها بالولاء الأدبي والزاد الفكري .

وما أيسر أن يُفسّر الموقف بأنه ظاهرة طبيعية في هذه المرحلة، عرفتھا الدنيا في كل عصور الحضرة والانتقال !

وما أسهل أن يقال : لا بأس علينا من هذا الصدام ، فهو دليل حيوية ونشاط ، وصمام أمن يحتفظ للأمة ببعض ميراثها ويلتمس لها جديد غيرها، فيحميها من الجمود المتحجر ومن الاندفاع الطائش المتهور !

لكن وهتج الصراع كشف وما يزال يكشف عما وراء هذا الظاهر البادي من أعماق غائرة، كما كشف ضجيج المعترك الأدبي عن عقْدٍ وأزمات لا يهون معها أخذُ الأمور بظواهرها ، ولا يسلم بها الاطمئنان إلى أن دنيانا بخير، وأن ما يصطخب فيها من تيارات متضادة لا يعدو أن يكون دليلَ اتزانٍ وظاهرةً طبيعيةً للمرحلة التي نجتازها ، بكل حيويتها وصخبها وتناقضها .

كلا . .

ليس الأمر بمثل هذه البساطة واليسر .

إنما يكون الموقف طبيعياً ، حين لا يشق علينا أن نلمح في كل أديب منا ، تلاقى القديم والجديد ، على تفاوتٍ بين الأدباء فيهما ، كماً وكيفاً ، ومن ثم تلوح على أفقنا نقط اتصالٍ يلتقي عندها الطرفان المتباعدان في القطاع الزمني الواحد .

تماماً كما تلتقي أجيال من الأمة في مرحلة زمنية ، كل جيل منها منتم إلى عصر غير عصري أبائه وأولاده ، مخلوق لزمان غير زمان سلفه أو خلفه ؛ وبينهم مع ذلك ملامح مشتركة لروابط جامعة . .

والتفسير البيولوجي للتاريخ ، إذا كنت قد فهمته فيما قرأت لأستاذنا « الدكتور محمد كامل حسين » يستطيع أن يجعل هذا التسلسل الطبيعي للكائن الحي عبر مراحل تطوره ، من أبعدٍ قديمه إلى أحدثٍ جديدٍه . والفكر كائن معنوي ، يصدق عليه ما يصدق على الكائنات الحية المحكومة جبرياً بقوانين الوراثة ، وقوانين التطور معاً .

لكن الذي نلاحظه في ظاهرة فقدان التعاصر بين أدبائنا ، أن كل طائفة منهم تقف بمعزلٍ تماماً عن الأخرى ، دون قدرٍ مشتركٍ من الملامح الفكرية الشاهدة بانتمائهم إلى أمة واحدة وعصر واحد ، ودون نقط اتصالٍ يلتقون عندها ، ما بين أقصى الطرفين ، ليكون تفاوتهم بعد ذلك ظاهرة طبيعية تفسرها جبرية الوراثة وحتمية التطور .

ولست أقول بشذوذ هذه الظاهرة ، وإنما أحاول تحليلها في وجودنا الأدبي ، فأراها أثراً محتوماً لتفاوتٍ بعيدٍ في ظروف نشأتنا ومناهل ثقافتنا ، أعوزتنا معه المعاصرة الفكرية ، لا بين الأدباء منا فحسب ، ولكن بين أبناء هذا الجيل من المثقفين العرب .

نحن جميعاً أبناء شرعيون للجيل السالف الذي شهد في الأسرة الواحدة — كما قال الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة — « أباً معممًا من صميم الريف . وأماً منحدره من أصل تركي ، وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الإنجليزي ، وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي . كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ، ومظاهر القرن العشرين » .

نحن جميعاً ننتهي بأقرب ميراثنا إلى عصر الاحتلال الأجنبي ، حيث عطّلت الطاقة العقلية لمن نتاح لهم فرصة التعليم من أبناء الأمة ، وصُيرت المدارس مصانع لسبك ما تحتاج إليه أجهزة الدواوين من أجهزة بشرية .

وفُتحت الأبواب ، كلُّ الأبواب ، للبعثات التبشيرية والإرساليات الأجنبية من كل جنس وملة ، لتتغلغل في صميم الوجود الفكري للأمة وتسلخ من استطاعت من أبنائها ، بما توصل فيهم من عقدة الشعور بالنقص ، وما تلقى في روعهم من أن الشريعة سمة تخلف وانحطاط ، وأن اتصالنا بقديمنا ظاهرة تحجر وجمود .

وفي أقصى الطرف المقابل ، كانت المعاهد الدينية تصنع صنفاً آخر من الطلاب ، انفصموا تماماً عن العصر ، وحُصِنوا ضد جرثومة التطور وبدعة التجديد وزين العلم الحديث ، فخرجوا وهم واثقون أن لديهم وخدمهم كنوز المعرفة ومفاتيح فهم الكون ، أما الآخرون فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

وماج الفراغ السحيق بين الطرفين المتقابلين بتيارات شتى وافدة من الخارج ، وتدفع سبل الغزو الفكري يجتاح الحمى المستباح ، دون أن تصده سدود وحواجز ، والأمية فاشية والجهل فريضة مقررة في شرعة الحكام .

وقد كان إنشاء الجامعة في مصر عملاً قومياً حاسماً لإيجاد بيئة محررة الفكر تعصم بها الأمة في مهب الريح ، وتخط لها طريقاً مأموناً عبر الهوة السحيقة بين طلاب المعاهد الدينية وطلاب سان مارك والقرير والجزويت وفيكتوريا والأمريكان وما لا أحصى من مدارس الإرساليات التي انتشرت في الوطن العربي تحت ظل الاستعمار وفي حمايته ورعايته .

كما كان التعليم الجامعي في الوقت نفسه ، خطة قومية مضادة لسياسة الاستعمار التعليمية، وإطلاقاً لطاقت الأمة العقلية من مصنع الآلات البشرية لأجهزة الدواوين . وبدأت الجامعة تشق طريقها في ظروف صعبة ، وهي تدرك رسالتها حق الإدراك وتعنى هدفها أتم الوعي .

دون أن يتشابه عليها الأمر فتخلط بين مهمتها في قيادة الحياة العقلية للأمة وتحقيق وجودها الفكري الحر ، وفتح الآفاق الفسيحة لطموحها ، وبين مهمة

المعاهد العليا لإعداد طبقة خاصة من الموظفين حسب ما تقتضيه الحاجة الديوانية ، وفي حدود ما رسمته النظم السياسية والأوضاع الاجتماعية الطبقية التي كانت قائمة .

ولا التمس عليها الفرق بين التدريب المنهجي للطلاب العرب على التفكير المستقل والبحث الحر ، وبين صيهم في قوالب مماثلة تلغى شخصياتهم التي لا يستطيعون بدونها أن يمارسوا وجودهم الفكري الطليق ، وأن يقودوا الأمة إلى ما تستشرف إليه في مجال تخصصهم .

لكن حكومية الجامعة ، في عهد الاحتلال ، ما لبثت أن كبّلتها بأغلال من اللوائح أملاها الوضع الطبقي ، فكانت رسوم التعليم الجامعي جواز المرور إلى حرمة المحظور على الفقراء من أبناء الشعب ، كما ألقت سياسة العهد ظلالها على الطريق ، فكانت محنة الجامعة بالحزبية السياسية التي سممت جوها العلمي ، لا تقل عن محتتها بتغلغل النفوذ الاستعماري الذي اتخذ من مناطق معينة فيها ، قاعدة لتدمير معنويات الأمة ، ومجال غزو فكري يظاهر ما اجتاحت وجودنا العام من غزو مثله ، عن طريق مؤسسات الثقافة الأجنبية وأجهزة دعايتها المدربة .

وشغلت الأمة في مصر وفي سائر أقطار الوطن العربي ، بنضالها السياسي عن وجودها الفكري ، كما شغلت الجامعة بمصائبها عن أعباء مركزها القيادي في الأمة ، وانطوت على كيانها المريض تحاول أن تستبقي فيه روح الحياة وإزادة البقاء ، في الوقت الذي كانت فيه دور العلم الأخرى في الوطن العربي ، تزرع كذلك تحت أوضاع مماثلة .

وخلا الجو ، أو بدا أنه خلا ، لتيارات الغزو الفكري ، فازدادت أزمة فقدان التعاصر بين أبناء جيلنا حدة وتعقداً ، وضج الميدان بدوى الصدام بين قديم وجديد ، ويمين ويسار ، وشرق وغرب .

وفي دوامته العنيفة ضلت المقاييس واختلطت المفاهيم واضطربت القيم ، فلم نعد في الصعيد الفكري نميز بين الرجعية والحفاظة ، أو بين الجمود والأصالة ، كما لم نعد نفرق بين الاقتباس الواعي والتقليد المردد للأصحاء .

وتمزقنا طوائف وأحزاباً ، ومضينا طرائق قديماً! (١)

وتحررت أقطار وطننا الكبير ، ومضى ذلك العهد بأوضاعه ، لكن بعد أن خلّفنا غرباء : لم نلتق في طور التكوين ومرحلة التلقّي ، فشق علينا أن نلتقى في طور النضج ومرحلة الرشد والاستقلال . . .

فيما من يتلقّى زاده الثقافي والفكري والفني من نبع شرق صميم ، يباهى بمناعته ضد التيارات الوافدة .

وفيما من لا زاد له إلا الفكر الأجنبي ، وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسي في بيئة عزلته عن تاريخ أمته ولسان عربيته .

ودخلنا الميدان الأدبي والفني ونحن نحمل ، رضينا أو كرهنا ، ميراثنا المحتوم ، ونسير في اتجاه مقرر مفروض لا نملك أن نحيد منه .

وهكذا التقينا ونلتقى ، وكأنا غرباء !

• • •

وقد يتبادر إلى الظن أن أزمة غربتنا إنما تبلغ ذروتها الدرامية ، حين يلتقى أدباء العرب فإذا فيهم من يُعيبهم أن يعبروا عن أنفسهم بلسان عربيتهم . وهذا هو ما كنت أتصوره ، إلى أن التقيت بعدد من إخوتنا أدباء الجزائر الذين سرق المستعمر لسانهم ، في محافل أدبية جمعت بيننا في مصر والجزائر وبغداد ، وفي روما وطشقند .

هنالك أدركت أننا جميعاً في البلوى سواء ، وكلنا في الهم شرق .

ولعل الفرق الوحيد بين أدباء الجزائر وغيرهم من أدباء العرب المعاصرين ، أن الأولين على وعي تام بالحنة . والذين عرفوا « كاتب يس » عن قرب ، يدركون إلى أي مدى أرقه الإحساس بالغرابة المعنوية وأصنائه وعيّه لمأساة التمزق والضيق التي عبر عنها زميله الشاعر الشهيد « مالك حداد » بصرخته المثيرة :

(١) عالجت هذا الموضوع بمزيد بيان في مقال عن « تطورنا الفكري » نشرته جامعة عين شمس في كتابها « أضواء على الثورة » سنة ١٩٦٣ . وللحديث بقية تأتي في القسم الأخير من هذه المحاضرات .

لا تَسَلِّمَتِي يَا أَخِي . . .

إذا لم يطربك غنائى

أنا لا أغنى . . .

لقد سرقوا لسانى فأنا أصرخ .

على حين نلتقى بالمشرق أدباء آخرين ، يجهلون أنهم يعيشون كذلك فى أوطانهم غرباء : يحملون ألقاباً عربية ، وعقولهم قد تشبعت بالفكر الغربى ، وعواطفهم قد تسلط عليها الأدب الأجنبى ، ومن ثم تعوزهم الروابط التى تربطهم بأرضهم . . . ويفقدون فى زهو العصرية ملامح أصالتهم : عقولهم مشدودة إلى الغرب مأخوذة بفتنته ، وهم مع ذلك عاجزون - وإن جهلوا عجزم أو تحدوه مكابرين - عن التخلص من احتكام الميراث الذى تأصل فى أعماق كياناتهم ، فإن لم يبلغ الموقف بهم مبلغ الضياع ، فأهْوَنُ ما يوصف به أنه محنة تمزق وانفصال فكرى ووجدانى عن جمهرة مواطنيهم ممن تقطعت الأسباب بينهم وبين الموارد الغربية . وقد عالج السفير الهندى « بانىكار » هذه الأزمة بعمق ووعى ، فى محاضرة له ألقاها بباريس سنة ١٩٦٠ عن « المشكلات الثقافية فى الشرق الآسيوى الإفريقى » وكشف فيها عن تعطل الدور القيادى للشباب المثقف ، فى نهضة بلادهم ، أثراً لعزلتهم الفكرية عن أهلهم وانفصالهم ، العقلى عن جماهير الشعب .

• • •

ليست مأساة فقدان التعاصر إذن محصورة فى غربلة الأدباء الذين سرق المستعمر لسانهم ، وإنما هى مأساة عامة ، وإن تفاوتت مظاهرها وضوحاً وخفاء ، وتفاوتت إحساس أدبائنا بها بين عمق الوعى وغفلة الوهم أو تجاهل المكابرة !

وإذا كان «محمد ديب ، ومالك حداد ، وكاتب يس ، ومولود معمرى ، وآسيا جبار» وأمثالهم . . يقدمون صورة معبرة عن مأساة الغربية التى تسيطر على المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين ، فهناك من كتابنا من تنكشف فيهم أبعاد أخفى للمأساة : ألقابهم عربية ، وفكرهم مجلوب ووجدانهم مستعار .

وآخرون منا قد انقصموا تماماً عن عصرنا وراحوا في غيبوبة لا تعى ما يدور حولها ، وتحسبه من وسوسة الشيطان وأفاعيل الجان .

وضح الميدان الأدبي بالتهم يتقاذفها هؤلاء وأولئك : فأصحاب القديم مطاردون بوصمة التخلف والتحجر والحمود ، وريبيو المدرسة الغربية مطاردون بلعنة المروق والانسلاخ عن قوميتنا ، مجرحون بعقدة « الخواجة » .

\* \* \*

وما من ريب في أن من بين أدبائنا المعاصرين الأصلاء من احتفظوا برشدهم في دوامة الإعصار الهادر، فثبتوا أقدامهم على أرضهم ومدوا أبصارهم إلى بعيد الآفاق . . .

ولكن فيهم كذلك من اختلط عليه الأمر وتشابهت المسالك ، فأضنته الحيرة بين قديم موصوم بالتخلف والعقم ، وجديد موسوم ببصمة الأجنبي . ويمكن أن أقدم شاعرنا الراحل الشاب « أبا القاسم الشابي » نموذجاً لهذه الفئة من أدبائنا ، المهفة بضغط التمزق بين شد الرجعية وجذب العصرية .

وكتابه « الخيال الشعري عند العرب » يجلو لنا أبعاد المأساة ، وسوف أقدمه في محاضرة تالية ، عبرة ومثلاً .

\* \* \*

وقد تسألون : ألا تعاني دول الغرب من مثل هذه الأزمة ، في فقدان التعاصر بين أدبائها ؟

والذي أعلمه وقد طوفت بالآفاق شرقاً وغرباً ، أن هذه الدول قد اتقت الأزمة ، حين حرصت على وحدة التكوين الثقافي لأبنائها في مرحلة النشأة والتلقى ، حيث لا يبدأ تقديم الثقافات والآداب الأجنبية إلى جيل الغد ، قبل الاطمئنان إلى أنهم اتصلوا بثقافتهم وأدبهم القوي اتصالاً وثيقاً يكفي لأن يضع أساس تكوينهم العقلي والوجداني ، وبعد ذلك تأتي في المراحل الأعلى ، روافد جديدة من ثقافات الأمم الأخرى .

ولا أذكر أتى لقيت قط ، مثقفاً ألمانياً يعرف شكسبير قبل أن يعرف جوته ،

أو أديباً إيطالياً يعرف شوسر وهيجو قبل أن يعرف دانتي ، أو طالباً إسبانياً يعرف مولير قبل أن يعرف سرفانتس !

كما لا أتصور أن مثقفاً غريباً ، مَن كان ، يقرأ تاريخ دولة أجنبية قبل أن يكون قد وعى تاريخ أمته ، أو يتقن لغة مستعارة قبل أن يفقه لغة قومه !

ومن هنا كفلت الثقافة القومية الموحدة ، في مراحل التعليم الأولى ، القدر الكافي من التعاصر بين أديباء الجيل الواحد ، وإن تفاوت بعدها حظُّ كلِّ أديب من الاتصال بالفكر الأجنبي .

على حين نرى من بين أديبائنا ، من يعيهم أن يكتبوا بلسان عربيتهم ، ومن يجهلون تاريخنا القومي والأدبي ، إلى جانب من ليس لهم أدنى حظ من ثقافة غربية .

وإذا كانت الأقطار الحرة في الوطن العربي قد اتجهت بعد معارك تحريرها إلى تعريب الثقافة وتوحيد برامج التعليم في مدارسها ، فلنذكر أن أديبنا المعاصرين قد تم تكوينهم الفكري والفني قبل عصر الاستقلال ، فخرجوا إلى الميدان خليطاً متنافراً متناكراً ، فهم فيما بينهم غرباء .

• • •

## وهنا أقف لأسأل :

هل من قيمة جديدة نستحدثها لأدبنا المعاصر فيما يتصل بالمفهوم الزمني للمعاصرة وما يلابسها من مناخ فكري لأدبائنا ؟

لعل لا أضيف قيمة جديدة وإنما قصارى الجهد أن نصحح زيفاً نتورط فيه ، حين ننظر إلى أدبنا الجديد بعين العصر ، ونعرض أدباءنا على مقياسه .

نحن مثلاً نعد من المعاصرين ، كل أديب غربي الثقافة أجنبيّ الزاد ! ونعدُّ من الأمسيين ، كل أديب عربي الثقافة شرق السمات ، بصرف النظر عن العمل الأدبي الذي يقدمه كلاهما .

وهذا المقياس يستند إلى الفهم الشائع عن ارتباط مدرسة الفكر الغربي بالعصر الحديث ، على حين تحتاج المدرسة العربية إلى أن توغل في أعماق قديمنا وتزود من منابع الثقافة العريقة العتيقة ، التي تفصلنا عنها عصور طوال .

وننسى أن المدرسة الغربية كذلك توغل في أعماق ماضيها ، وتتصل بمناشئها الأولى من عصور ما قبل التاريخ (١) .

وهكذا نترك هذا المقياس للمعاصرة ، يُزيّف مفهومها فيضع بصمتها على كل ما يكتبه أصحاب الثقافة الغربية ، ولو ارتدوا إلى العصور الخوالي وتنفسوا في مناخها الأسطوري .

ونسلب الأصلاء من ذوى الثقافة العربية حقّ المعاصرة ، ولو عاشوا بروح عصرنا ورجعوا نبض وجدانه .

وقد آن لنا أن ندرك سذاجة هذه المغالطة :

ندعو إلى الاتصال بقديمنا والكشف عن أعماق وجودنا واجتلاء آثار خطانا على درب الزمن ، فنوصّم بالتخلف والغيبية .

(١) انظر مقال الدكتور محمد مندور عن بيجاليون ، وأرواح وأشباح ، في كتابه « في الميزان

الجديد » ط لجنة التأليف ١٩٤٤ .

أما إعادة ترجمة مسرحيات شكسبير ، فتُعد خطوة تقدمية تعين على تطورنا ،  
وتقلنا بساحراتِ « مكبِث » إلى عصر غزو الفضاء !

ويقدم الأصلاء منا نماذج فنية لشخصيات من تاريخنا ، فيقال « إننا نصر  
على أن يظل الشرق العربي في مكانه الاستراتيجي بمقابر الأنبياء » (١) .

أما إذا عشنا في أساطير شعوبِ بادت ، مع زيوس و باخوس وجوبيتر  
وما لا أدرى من آلهة خرافية ، فنحن عصريون مجددون ، نطل بقومنا على رجب  
الآفاق !

ونقدم « أبا العلاء » أديباً عربياً أصيلاً حرّاً ، فيزورُ عنه ريبو الثقافة  
الأجنبية ، والمصابون بعقدة « الخواجة » ، حتى إذا قدمه زميل آخر ريبياً للثقافة  
اليونانية ، أفسحوا له مكانه في وجودنا الأدبي المعاصر . . .

ونُطل في شعرنا الحديث على آثارِ خطاه الماضيات في شعر الطليعة الرائدة  
من عصر البارودي والتميمورية ، فتأخذنا صيحات تتساءل عن وجه إقحام ذلك  
الماضي على جديتنا .

فأما إذا نقلوه إلى ساحة « توماس ستيرن إليوت » فإن أنفاسه الغربية هي التي  
تنفخ في شعرنا من روح العصر !

ولا بد من ضبط هذا الاختلال ، فرفض بمنطق المعاصرة كلّ ما انعزل عن  
وجودنا دون أن يخدمنا انتماء الأديب إلى مدرسة حديثة أو قديمة، غربية أو شرقية .  
ونقبل كل ما كان معبراً عن جانب من وجودنا منفصلاً بذاتيتنا ، مهما يكن  
منهله ، مادام قد صار عنصراً من عناصر شخصيتنا .

وبهذا الضابط ، لا تكون أساطير اليونان التي يقدمها أو يستلهمها أدباء عرب  
محدثون ، ويقفون بها حيث هي بعيدة عنا غريبة علينا ، أدنى إلى المعاصرة من

(١) العبارة بنصها من كتاب « سلامة موسى وأزمة الضمير العربي المعاصر » وسوف أناقشه في

أساطير شعوبنا القديمة ، حتى ما انقرض منها وباد ، تاركًا رواسبه في أعماق ذاتنا .

ولا يكسب صفة المعاصرة من الأعمال الأدبية ، سواء منها ما أوغل في العصور الخوالي ، وما كان من البضاعة الحاضرة ، إلا ما نصغى فيه إلى نبض حياتنا بأبعادها المترامية .

واعرضوا على هذا المقياس الضابط ، كل الأعمال الأدبية ، في مختلف أنواعها وفنونها ، وشتى مناهلها ومصادر إيجائها ، يحدد لكل منها موضعه من المعاصرة دون أن يضطرب أو يختل .

واعرضوا عليه أدباءنا المحدثين ، على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم ، وتفاوت منابع ثقافتهم وأجواء فكرهم ، يحدد لكل منهم مكانه في وجودنا الأدبي الحي ، دون أن يزيغ أو يضلل . . .



## أدينا المعاصر ومنطق التطور

وجودنا الحى ، يفرض علينا أن نضيف  
جديداً إلى تراثنا ، فتلك هى سنة التطور .  
ومن ماضيتنا بكون منطلقنا إلى مرحلة تبدأ  
من حيث انتهى أمسنا ، لتتقدم بنا خطوة  
نحو أفق يمتد ويرحب كلما قطعنا شوطاً فى  
العروج إليه .

وإذا كان نُقُوف الجامد عندما وُضِل إليه  
أمسنا خروجاً على قانون التطور ، فإن بَر ذلك  
الماضى والانطلاق من فراغ ، مسخٌ لمفهوم  
التطور بما هو تدرج الكائن الحى فى الصعود  
إلى أفق كماله .



وذلك الضابط لمفهوم المعاصرة في مجالها الزمني ، يهدينا إلى ملاحظة دقيقة في دلالة التطور .

فقد كشفت الخصومة حول الشعر الجديد عن أخطاء جوهرية في فهم القضية من حيث هي قضية تطورٍ محتوم يعوزنا أن نحرر مغزاه ونضبط دلالته ، حسباً لخصومة ما كان ينبغي أن تورط فيها لو أننا فهمنا القضية على وجهها الصحيح .

والخطأ الأول في تقديري ، أن فينا من لا يزال يجحد حق الشعر المعاصر ، والأدب بوجه عام ، في أن يضيف جديدَه المبكر إلى رصيد عصورٍ خلّت ، وهو حق مقرر بمقتضى قانون التطور الذي يسرى على الأدب الحى .

وعندما يقف الأدب عند التقليد والنقل والتبعية ، دون أن يتجاوزها إلى الإبداع والابتكار والتنمية ، فإنه يقضى على نفسه بالجمود والعقم ، لا يعصمه منهما أن تصخب حركته المغلولة بهتاف «محلّك سرّ» أو أن تتضخم بضاعته وقد أعوزها الابتكار الأصيل الذي يُخصب الوجود الفنى للأمة ويتقدم بها خطوة على مدارج الترقى .

ودفعُ التطور . في أى مجال من الحياة ، ليس من اختصاص الكثرة التى تقتحم الميدان بموهبة هزيلة أو بوهم الموهبة ، فتظل في المرتبة الدنيا تستنفد طاقتها في التقليد والمحاكاة . وتملاً الساحة المهابطة بأكوام من محاولات فجة مُسِفّة .

كلا ، ليس دفع التطور من عمل هؤلاء ، وإنما هو دائماً في كلِّ مجال وكل زمان ، عمل قلة من الصفوة عرجت على السفح إلى قمة عالية ، مستشرقة بالإنسانية إلى آفاق لم يرتدها أحد من قبل ، وملبية هيامها الدائم إلى الكمال وسعيها الدائب نحو عالم المثل .

وليس من طبيعة الأشياء ولا من سنة الحياة ، أن تقف الإنسانية عند مرحلة بعينها تعدها غاية المسعى ونهاية المطاف ، بل إنها ما تكاد تصل إلى ما تمثلته وسعت إليه ، حتى يلوح لها أفق أبعد لم تكن تستشرف له فيما قطعت من مراحل سابقة على الطريق ، وحينذاك تدرك أن ما حسبته بالأمس مثلاً أعلى للحق والخير

والجمال ، لا يعدو أن يكون تمثلاً مرحلياً يرقى بها درجة إلى حيث يبدو لها أفق أوسع ، فتستجلى من رحاب الحياة والكون ما لم يكن يبدو لها في مرحلة مضت .

والأصلُ أن تخطو البشرية دائماً على مراقي تدرجها ، فيساير هذا التدرجَ تطوراً في إدراكها وغاياتها ومثلها ، ومن هنا كان تطور الفن سنة الحياة وقانونها الطبيعي . ولكن الذى يحدث أحياناً أن تقوم معوقات في سبيل التطور ، تحاول أن ترده عن مسعاه أو تضلله عن مساره الصحيح ، فتتعطل حركته ريثما تسترد الحياة من قوى الصحة والوعى ، ما تقاوم به عوادي المرض وتمزق حجب الغفلة وغواشى التضليل . ومن ثم تستأنف السير والعروج ، بعد أن تكون قد خسرت كثيراً وتكبدت تضحيات جسيمة .

ومع إيماننا الراسخ بأن الوقوف في وجه التطور تأباه طبيعة الوجود ، وأن كل محاولة لتجميد حركة الكائن الحى ، مادياً كان أو معنوياً ، لا بد أن تنسخها آية الحياة . . .

فالذى لاشك فيه أن مثل تلك المحاولة ، على عقمها ، تعوق خطانا وتبدد طاقاتٍ ليس من حق جيلنا أن يضيعها على الأمة عبثاً .

• • •

ووعى التطور هو الذى يمنح الصفوة من أدباء القمة ، فرصتهم لارتداد آفاق من الفن والحياة لم يستشرف لها قديمنا ، فتكون القيادة الأدبية اتجاهاً إلى شوط يبدأ من حيث انتهى شوط سابق ، لأن تسير بنا حيث سار رؤادُ مرحلةٍ ماضية ، أتموا رسالتهم في كشف أسرارها واستيعاب أبعادها ودفع خطاها إلى الأفق الذى طمح إليه زمانهم .

وما تخلف أدبنا في عصور انحطاطه ، إلا لأنه وقف يجتر قديمه ويحاول أن ينسج على منواله . ويرى فيه غاية المسعى وقمة الطموح وذروة الكمال . ذلك حين كان مجد الأديب يقاس بمقدار ما يبلغه من شوط أتمه فحول الماضين ، وحين كان مطمح أمانيه أن يقال إنه متنبئ زمانه أو جاحظه أو أبو نواسه أو أبو تلمه أو وليده البحرى . . .

دون أن يمد الأديب تطلعه إلى ما بعد هؤلاء الذين لبوا حاجة زمتهم وقادوا وجود قومهم في مرحلة بعينها على مدرجة التقدم .

أجل ، تلك كانت علة التخلف الفني والأدبي ، نجد صداها وتفسيرها ، فيما غشى حياة أمتنا في تلك العصور من انحطاط عام وجمود مسيطر ، لطول ما قنعت بأن تمتات من مجد قديم لم تمنحه من وجودها نبض حياةٍ أو حسَّ حركة . . .

وكانت العبرة الكبرى ، أن سنة الحياة استطاعت بعد حين أن تكتسح تلك المعوقات ، وأن قانون التطور غلب عقم الجمود . لكن بعد أن تعطل سير الأمة العربية زمنًا ، وفاتها مراحل من التقدم جاهد رواد اليقظة في تعويضها بجديدٍ من حيويتهم . فوصلوا بنا إلى حيث ينبغي أن ننتقل مع التطور بأقصى ما نستطيع من طاقات .

ونقطة الانطلاق ، يجب أن تبدأ بالتسليم بأن أدبنا المعاصر ملزم بأن يضيف جديدًا إلى قديمنا . وأن يرتاد لنا آفاقًا لم يتطلع إليها أمسنا ، خضوعًا لمنطق التطور .



ولا بأس هنا من وقفة قصيرة ، نطل بها على تاريخ أدبنا الحديث ، في سيره وتدرجه من بدء مرحلة اليقظة والبعث .

وإذا عددنا « البارودي » رائد تلك المرحلة ، فيجب ألا يختل الميزان في تقييمه بمنطق التطور ، فنحسب أن مجد البارودي أنه كان في الشعر العربي بحترى زمانه أو ابن معتزه أو شريفه الرضى أو أبا فراسه . . .

ونصور أن دوره الجليل ، عودته بالشعر العربي إلى ماضى عصور ازدهاره . . . فنكرار الشعراء القدامى ، لا يعطى قيمة حقيقية ومجداً أصيلاً . ومجرد العودة إلى عصرٍ خلا ، أولى بأن تُحسب رجعة إلى حيث وقف الشوط بسلفٍ مضوا ! وإنما كان مجد « البارودي » في حساب الفن والحياة ، أنه بثَّ في الشعر من نبض الحياة ما استطاع به أن يسرد أنفاس الصحة بعد سقم طويل ، وتهيأ

لاستئناف السير التقدمى من حيث انتهى به الشوط فى عصر ازدهاره .

ومكان البارودى فى تاريخنا الأدبى ، ليس حيث يُبنى عن عصره ليتمى إلى العصر العباسى أو العصر الجاهلى ، فذلك ظلم فاحش تورط فيه أكثر دارسى البارودى ومؤرخيه ، من حيث أرادوا أن ينصفوه ويقدروه .

وإنما مكانه الصحيح ، بين الصفوة من رواد مرحلة اليقظة فى تاريخ أمته :  
لم يرجعوا بها القهقرى إلى عصر قوة مضى ، ولا حملوها على الانطلاق وهى مثقلة برواسب التخلف وأسقام المرض ، وإنما كانت رسالتهم الكبرى أن يُشخَّصوا عيبتها ويكشفوا عن الخلايا الحية فى صميم كيائها العليل ، ويستثيروا أعمق ما فى ذاتها من إرادة الحياة وطاقة التحدى والنضال ، لكى تسترد قدرتها على مقاومة الداء ، وإصرارها على البقاء ، وتمضى بحيويتها المتجددة نحو عصر جديد . . .

والذى قام به قادة الثورة العرابية فى المجال السياسى ، والأفغانى ومحمد عبده فى مجال الإصلاح الدينى ، وقاسم أمين فى المجال الاجتماعى ، ولطفى السيد وعاطف بركات فى المجال الفكرى ، هو بعينه ما قام به البارودى فى المجال الأدبى : أدرك الشعر مريضاً سقيماً فلم يقصره على الانطلاق وهو مهيبض الجناح ، ولا عاد به القهقرى إلى ماضٍ له بعيد ، بل نفذ بوجدانه الملهم إلى علة مرضه واهتدى ببصيرته المرهفة إلى الخلايا الحية فى الكيان العليل ، وما زال يناضل حتى رد إليه أنفاس صحته ، ففتح من جديد يستقبل الفجر بعد ليل طال ، ونهض لكى يغد السير على الطريق الصاعد إلى « عصر شوق » ، كما تفتح وجودنا القومى مهيباً للانطلاق من عصر عرابى إلى عصر مصطفى كامل . . .

وحداة الركب من رواد اليقظة ، لم يدركوا مطلع الفجر ، بل مضى عرابى دون أن تحقق الأمة خلاصها من أصفاد الرق وبرائن الطغيان ، ومضى الأفغانى ومحمد عبده دون أن يتحرر الفكر الإسلامى من جموده ، ومضى قاسم أمين دون أن تحطم المرأة قيودها وتنطلق من وراء أسوار الحریم .

وكذلك مضى البارودى دون أن يدرك الشعر مشارف الأفق الجديد .

لأن طبيعة المرحلة لم تكن تحتل أن يتم شىء من هذا كله ، قبل أن يبرأ

كيان الأمة من سقمه وأوصابه ، ويرفض القيود والأصفاد التي تغل حركته ،  
وتنجاها غواشي الظلمة التي تحجب الرؤية .

ودخلوا جميعاً تاريخ أمتهم : قادة مرحلة اليقظة ، ورواد عصرٍ جديدٍ أعدوها  
له وأضاءوا لها طريقها إليه .

• • •

وجاء شوق العظيم فلم يدخل تاريخنا الأدبي بقصائده له قَفَسِي بها على آثار  
الفحول القدامى ، ولا استحق مجده بأن كان تكراراً للبارودي أو امتداداً أقيماً له ،  
وإنما ارتقى قمة المرحلة بما أضاف إلى الشعر العربي من جديد لم يُسبق إليه ، وما ارتاد  
له من أفق لم يشارفه شاعر قبله ، فاستطاع بذلك أن يعبر بوجودنا الفني شوطاً على  
مرقاة التطور :

امتداداً رأسياً صاعداً ، من حيث انتهى « عصر البارودي » .  
وانطلاقاً إلى قمة المرحلة التي يبدأ منها « عصر ما بعد شوقي » .

• • •

ويعنون جيلنا وجوده ، إذا نحن كررنا مأساة عصور التخلف وعيشنا بمنطقها  
في تقييم الأدباء بما تصل إليه محاولاتهم من تقليد السلف الكبار !  
وعبث ما بعده عبث ، أن نعد قمة أدبنا ، من كل همّة أن يقلد شوقي أو الزهاوي  
أو المنفلوطي أو جبران أو مي . . . وأن نقيس أدبنا بمقياس المحاكاة لرواد مرحلة  
مضت ، فيكون النسيج على منوالهم مناط التفوق والامتياز والتقدير .  
إن مصانع النسيج اليوم ، لا تنسج على منوال أقطاب هذه الصناعة في القرن  
الماضي ، وإنما تأخذ من تجاربهم ذخيرة غالية فيما تستحدث من نسيج ملائم للعصر  
وشوق لن يتكرر أبداً .

كما لن يتكرر البارودي والزهاوي وابن الفارض وأبو العلاء والمتنبي وأبو تمام .  
مهما يقطع متقدمهم أنفاسهم في تكرار الشوط الذي قطعه كل واحد من أولئك  
الكبار ، وبلغ به أقصى مداه . . .

ودعاة التقليد قد يحسبون أنهم إذ يغالون في قيمة « النسخ على منوال » العظام من أدباتنا الماضين ، يقضون حقهم علينا من الوفاء والإكبار . .

ويغيب عنهم أن إعادة الشوط تعنى الإقرار بأن السالفين من أدباء القمم ، قصّرت بهم طاقتهم عن بلوغ شوطهم ، بحيث نحتاج إلى من يكرر المحاولة .

وذلك ما يتعلق به وهمّ المقلدين الذين لا ترى فيهم الحياة غير نسخ ممسوخة تُعوّزها الأصالة وموهبة الإبداع . ويلزمها التقليد مكانها في أدنى السطح الهابط حيث الكثرة من حكاة الصدى والناسجين على منوال لا جديد فيه .

\* \* \*

وإذا كان منطلق التطور يفرض أن يضيف عصرنا الأدنى جديده . فسداجة ما بعدها سداجة أن يتصور بعضنا أن تطور أدبنا المعاصر يعنى أن يبدأ منطلقه بمعزل عن ميراث ماضيه .

فجديدنا لا يمكن أن يقوم على هباء ، أو أن يخطو في فراغ تائه ليس فيه إشارة إلى معالم خطواتنا السابقة على الدرب .

ومثل هؤلاء ، كمثل من يتصور أن البشرية اليوم تتطور منطلقاً من نقطة الصفر ، ضاربة في فراغ لا أثر فيه من تجارب الماضي الطويل ، أو أنها تحاول اليوم أن تتطور إلى عصر الذرة . بمعزل عن معالم المراحل السابقة لتطورها من عصر البخار إلى عصر الكهرباء !

والزعم بأن تراث ماضيها يعوق تطورها ويثقل خطواتنا ، كالزعم بأن تراث البشرية من قديمها الأسطوري البعيد الذي خايلتها فيه رؤيا التحليق في الجو على بساط الريح أو جناح الجن . إلى أمسها القريب الذي حلقت فيه بالطائرة فوق السحاب ، يشل انطلاقتها إلى عصر الفضاء والقمر !

\* \* \*

وهناك من يدعون إلى التحرر تماماً من أثقال تراثنا ، على أن نملأ الفراغ بناذج فنية نقلها عن الأمم التي سبقتنا على الطريق .

وينسون أن الآداب الوافدة إذا جاءت على فراغ وخلاء ، لم تُجد على وجوده شيئاً ذا بال ، وإنما تفرض علينا أن نعيش بوجودان مستعار .

والأمة تستطيع أن تنقل الثقافة والعلم ، كما تستعير ما يعوزها من ضرورات الحياة المادية، لكنها لا تستطيع أبداً أن تحيا بمزاج غريب مجلوب ووجدان أجنبي دخيل .  
والذين عجبوا لاهتمام العرب ، في حركة الترجمة الأولى ، بنقل علوم اليونان دون آدابهم . راحوا يفسرون هذا الموقف بأن الآداب اليونانية القديمة فيها وثنية ترفضها البيئة الإسلامية . وأحسب أن وراء هذا التفسير القريب ، ماحظاً أبعد وأعمق ، وهو أن الأمة الإسلامية أخذت ما أخذت من التراث العلمي للأمم القديمة، لأنها أرادت أن توسع من آفاق معرفتها وتخصب عقليتها ، لكنها تجافت عن الآداب كراهة أن تستعير وجداننا أجنبياً ، ومن ثم مضت حركة الترجمة والنقل والتعريب تغذى وجود الأمة بروافد سخية دون أن تمسح أصالتها . فتهياً لها بذلك أن تحمل لواء القيادة الحضارية في العصر الوسيط .

ولعل في هذا، ما يجيب عن سؤال الذين لفتهم التفاوت الواضح، بين عمق تمثليتنا للثقافة الغربية والعلم الحديث ، وبين ضعف هضمنا للآداب الأجنبية<sup>(١)</sup> .

وليس من الضروري أن نصدر في هذا الموقف ، أو أن يكون أسلافنا صدروا فيه ، عن وعي مدرك بأن حياتنا تقوم بعلم مستورد ولا تقوم بوجدان مجلوب ، بل لعلنا نفعل ذلك تلقائياً بهدئ ما في طبيعتنا من حرص على البقاء .

ومهما تبسّد الحاجة إلى مدد من الآداب والفنون الأجنبية، فيجب أن يكون واضحاً أن حياتنا لا تستغنى به وحده ، دون أن تعتمد أصالة على أدبنا القومي . وهتّبنا قسراً ووجدان قومنا على ما نقدمه إليهم من الزاد الأجنبي ، فسيظل عصياً على هضمه وتمثله ، ما لم يجذبنا بشيء فيه نستجيب له . . . بحيث يبدو أنه منا !

فبدلاً من أن يقسو ناقد في الحملة على « الذين قضاوا منا السنين الطوال بالغرب ، دون أن يتمثلوا الحياة الأوروبية والإحساس الأوربي »<sup>(٢)</sup> يجب أن تلفتنا هذه الظاهرة بدلالاتها على جانب من طبيعتنا يرفض تمثل الإحساس الأجنبي إذا لم يمت إلينا بسبب من الأسباب .

وعلى كل حال ، لا أريد أن أمضي في الاستطراد إلى الترجمة ، بل أكتفي

(١) انظر : د . محمد مندور : في الميزان الجديد ص ٤٦ .

(٢) » » » » » » ص ٤٨ .

بهذه الإشارة إلى ما يتصل منها بقضية التطور ، ردّاً على دُعاةٍ ملء الفراغ بروائعٍ من الآداب الأجنبية ، يتكئ عليها أدبٌ لنا جديد . .

وخلاصة ما أريد أن أقوله في هذه القضية ، هو أن وجودنا الحي يفرض علينا أن نضيف جديدنا إلى تراثنا الأدبي ، فهذه هي سنة التطور .

ومن ماضيها يكون منطلقاً إلى مرحلة تبدأ من حيث انتهى أمسها ، لتتقدم بنا خطوة نحو أفقٍ يمتد ويرحب ويترامى كلما قطعنا شوطاً في العروج إليه .  
 وإذا كان الوقوف الجاهل عندما انتهى إليه أمسنا خروجاً على قانون التطور ، فإن بتر ذلك الماضي والانطلاق من فراغ ، مسخٌ لمفهوم التطور ، بما هو تدرج الكائن الحي في الصعود إلى أفق كماله ، وسعى دائم نحو تحقيق وجوده بكل أصالته وحيويته .

## أصوات... وأصداء

قد يكون من المجدى ، بعد الذى قدمت من رصد للمناخ الفكرى، أن أنقل هنا بعض ما التقطت سمعى من أصوات كنت على وعى بأصدائها ، وأنا أختار موقفى من وجودنا الفكرى المعاصر .

وهذه الأصوات والأصداء منقولة من كتب منشورة لعدد من كتابنا ، مع تمييز نصوص أقوالهم بأقواسٍ فاصلة . وفى تقديرى أن مناقشتى لها تلقى ضوءاً على الموقف الذى اخترته ، وتعين على وضوح الرؤية لشتى التيارات التى تتصادم فى مجالنا الحيوى . . .

obeikandi.com

## المخيال الشعري عند العرب

الكتاب للشاعر «أبي القاسم الشابي» وقد اغتاله الموت في عز شبابه ، فلم يدرك عصرنا الأدبي الحديد ، غير أنه عاش في صميم المرحلة التي يمكن أن نلتمس فيها المناخ الفكري لأدباء جيلنا .

وفيما أنقله من أقوال الشاعر الشابي . ما يؤكد حاجتنا إلى قيم جديدة للأدب العربي .  
ترد الثقة فيه إلى شبابتنا الذين أنكرت أذواقهم العصرية ما قدمته لهم كتب الأدب من مختارات تعسة ، لم يروا فيها إلا سُمَمَ الصنعة وعقمَ الوجدان . . .

obeikandi.com

عرفنا « أبا القاسم الشابي » شاعراً أصيلاً ملهماً . تجاوزَ حدودَ إقليمه فرجعت آفاق الوطن العربي أناشيده وأغانيه ، وشغّل بشعره عدداً غير قليل من الدارسين والنقاد في المشرق والمغرب .

وقلّ فينا من اتصل بآثاره غير الشعرية ، مع شديد حاجتنا إليها ليصح فهمنا له ونستكمل ملامح شخصيته فيما ترك لنا من آثار .

وكنت أسمع عن كتاب له في ( الخيال الشعري عند العرب ) خلت منه أسواقنا بعد ظهوره في تونس في طبعة محدودة عام ١٩٢٩ .

ولبت أفنقه ، حتى أعادت نشره عام ١٩٦٣ « الشركة القومية للنشر والتوزيع في تونس » فأتاحت لي أن أعرف ما كنت أجهل من صراع كابده الشابي بين الثقافتين العربية والغربية ، ودفعه إلى أن يقتحم معركة فكرية أخرى مع ما كان يُجهد من أعباء نضاله : شاعراً قومياً يهز الوجدان العام لأُمته ويحدوها إلى الوجود الحر الكريم .

وهذا الصراع بين الثقافتين العربية والغربية يتصل من قرب بمأساة الضياع الفكرى التى ترهق جيلاً من شباب الأمة ، وتضغظهم بين شقى الرحى . وقد دأب قومنا على أن يتهموا كلّ تائر على القديم بالمروق ويصمونه بوصمة الانسلاخ من قوميته ، لكنى لا أتصور أن أحداً منهم يجروء على اتهام أبى القاسم بشيء من هذا ، وهو الذى ناضل بكل إصرار وبسالة فى سبيل قوميته ، ومضى شهيداً من شهدائها .

وهذا هو ما يعطى كتابه ( الخيال الشعري عند العرب ) قيمته الكبرى من حيث هو مادة صادقة لفهم أزمة هذا الجيل من شباب العرب ، ومع تقدير صدوره من شاعر لا ترقى إلى قوميته شبهة ، ولا تشوب إخلاصه لعروبته شائبة من شك أو اتهام .

والشابي فى كتابه واضح المنهج محدد الفكرة فى كل ما تناول من موضوعه : فلقد مضى يلتبس الخيال الشعري عند العرب : فى أساطيرهم ، وفى نظرتهم إلى الطبيعة

والمرأة كما ظهرت في أدبهم ، ثم في فنهم القصصي . . مضى يلتمس هذا بعين  
تفتحت على الأفق الغربي وعقلية ارتوت بقدر من ينابيع أدبه . بحيث لا يخطئ  
القارئ في كل فصول الكتاب ، أثر الانفعال المبهور بجمال الخيال الشعري  
وحيويته وخصبه في الأدب الغربي . مقارنة بما بدا للشاعر من عقم الخيال  
الشعري وجفافه في الأدب العربي .

بل أكاد أقول : إننا من الفصل الأول الخاص بالخيال الشعري في الأساطير  
العربية . ندرك مذهب أبي القاسم في المقارنة ومنهجه في تناول . ونستبين خـط  
سيره الفكري فيما يتلو من فصول الكتاب . ونعرف مقدماً ما سوف ينتهي إليه  
من نتائج .

ويبهرننا إخلاص الشاعر وحماسه في الدعوة إلى التحرر من الجسود . كما تبهرنا  
جرأته في إيقاظ قومه من فتور الغفوة وخدر النعاس . . .

بقدر ما تروعننا هذه المكابدة التي عاناها الشاعر بكل فكره ووجدانه .  
حين افتقد في أرضه النبع الذي يرويه . والجذور التي تربطه بقدم له أصيل حي .  
وأنت تقرأ كل الذي كتبه عن عقم خيالنا الشعري . فلا يخامرك ريب في  
أن الشاعر الشاب خاض المعركة بإيمان صادق ، ليفتح آفاقاً رحبة أمام الأدب  
العربي و يبشر بعصر جديد .

ولم تكن مأساة الشاعر — كما قلت في إشارتي إليه عندما تحدثت عن المناخ  
الفكري لأدبائنا المعاصرين — انقطاع صلته بماضي تراثه وجذور وجوده ، فالشابي  
في كتابه قد عرف أدبنا العربي كما يعرفه زملاؤه أبناء المدرسة العربية ، وكان حظه  
من الثقافة العربية أوفى من حظه من الثقافة الغربية ، ولكن المأساة أنه أطل على  
الأدب العربي من جانبه المظلم ، وتصور أنه وصل إلى النبع ، ثم عاف وِرد  
الآسن . . .

دون أن يدري — رحمه الله — أنه إنما وقف عند حُفْرٍ عَفْنَةٍ راکدة . ليس  
فيها من تراثنا إلا ما اختاره جامعون ينتمون إلى العصور الوسطى مزاجاً وذوقاً .  
وهذه النصوص المختارة التي لا تزال تُقدم أتعس النماذج إلى طلاب الأدب العربي .  
قد أقامت الحجب والأرصاء بين أبي القاسم وبين النبع الصافي المغيّب في الظل . . .

وليس ذنب الشابي أن وجد في تلك النصوص البائسة، عَقَمَ الخيال الشعري عند العرب .

فالذي قرأه من أساطيرنا لا يعدو حقاً أن يكون « أصداء جامدة لم تذوق لذة الخيال ، وأوهاماً شاردة لا أثر فيها لنبض الحياة وحس الوجود » ٣٣ : ٤١ (١) .

والذي قرأه من أدب الطبيعة . يؤكد له « أن العرب كانوا واقفين أمام مشاهد الكون ، لا وقفة المتهيب الخاشع المتشئ بنشوة الحسن وسكرة الجمال ، بل وقفة الأخرس الذي لا ينطق ، والأعمى الذي لا يبصر ضوء النهار » ٥٣ .

وقصائد الغزل فيما وصل إليه من نصوص مختارة : « لا تتحدث عن المرأة إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من أوصاف جسدية ، ولا تمثل عنده إلا الغدر واللؤم وخساسة الطبع وحطة النفس وخبث الضمير ، وقد أعياه أن يبصر ما وراء جسدها من حياة عذبة ساحرة وعالم شعري جميل » ٧٥ .

وزاد في عنف المأساة ، أن « أبا القاسم الشابي » كان يتناول موضوعه تناولاً خطابياً ويعانيه بمزاج الشاعر ووجدانه المستثار ، فأعوزه ما يحتاج إليه الدارس الناقد من يقظة الذهن وطمأنينة التأمل وضبط الفكرة من الجموح العاطفي والحماسة الخطابية ، وجاءت أحكامه حادة مرسلة يشوبها الإطلاق والتعميم ، وشاعت في أسلوبه ألفاظٌ « كل ، وجميع ، وعلى الإطلاق ، ودون استثناء » وأمثال لها ، مما ينفر منه أسلوب الدرس الأدبي ولا تحتمله طبيعة منهجه :

فهو يرى أن أدب العرب — على الإطلاق — « مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولُباب الحقائق » ١٠٣ .

والنظرة الدنيئة السافلة المنحطقة إلى المرأة ، « هي النظرة الشائعة في الأدب العربي كله ، والتي يتساوى فيها جميع شعراء العربية على اختلاف عصورهم وتباين طبقاتهم وتفاوت أوساطهم ، سواء في ذلك عَقَمُهم وفاجرهم ، وأولهم وآخرهم » ٧٤ .

كما زاد في قسوة المعاناة ؛ أن الشاعر ظل طوال حديثه عن الأدب العربي ، مشدود البصر إلى النافذة الغربية ، مهوراً بما يلوح له على البعد من رؤى الجمال ،

(١) الأرقام هنا وفيما يلي ، تشير إلى صفحات كتاب ( الخيال الشعري عند العرب ) في ط ١٩٦٣ .

فى كل فصل من فصول الكتاب ، يقف ليتلوفى خشوع آياتٍ مما سحره منها ، ثم ينتفض من نشوته ليصبح فى ثورة وسخط :

« نبثونى يا سادة ، هل تجدون فى العربية من يستطيع أن يحدثكم عن تلك العواطف العنيفة التى تهز الحياة هزاً؟ كلا . . . ولكنكم واجدون من يستطيع أن ينصد لكم من المجازات الزائفة والكنائيات المتكلفة ما تعجز عن بعضه حين سامان .  
« خبرونى يا سادة ، أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم عن نشوة الحب وسكرة العواطف ومعنى الأمومة ورحاب الأمل . أو يريكم هجسات القلوب واخلجاتها ؟

« كلا . . . ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى » ١٠٧ : ١٠٩ .  
ونقرأ كل الذى تلاه من الشعر العربى فنعذره !

ونصغى إلى ما اختار من الأدب الفرنسى فندرك حيرته وعله تمرده . . .  
ذلك لأن الذى رواه من شعرنا ، ليس كل تراثنا .  
بل إنه ، قد يكون أتعس ما فى ديوان الشعر العربى .

ولو قد اتصل بالنبع الصافى ، لما عز عليه أن يجد فيه مثل الذى راعه فى « الأدب الرومانتيكى الحالم المخلق فى وادى الخيال » ولما أخطأه أن يحس مثلاً ، فى مرثية أبى العلاء للإنسان :

صاح هذى قبورنا تملأ الر	حب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطاء ما أظن أديم الأبر	ض إلا من هذه الأجساد
سِرْ إن اسطعت فى الهواء رويدا	لا اختيالاً على رُفات العباد
وقبيح منا وإن قدم العـ	هد هوانُ الآباء والأجداد
رُبَّ قَبْرٍ قد صار قبراً مراراً	ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين	من قديم العصور والآباد

مثل ما أحسه فى كلمات « لامارتين » من " صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى فى الدير ! " ٦٥ .

ولوجد فى أشواق العذريين ومواجد شعراء الصرفية ، شيئاً آخر غير ما وجدته

في الغزل العباسي والأندلسي ( ! ؟ ) « حيث قضت المدنية الفاجرة على منابع الرجولة في الشاعر فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى ، بالرغم من جمال زنته وخلابة نسقه . . » ٩٢ .

بل لعله لو ألقى السمع إلى « مواويلنا الشعبية » لوجد فيها ما يهز الحياة فينا هزاً . .

ولكنه كما قلت لم يجد إلا تلك النصوص البائسة ، وليس ذنبه أن ظلت الرائجة في دنيانا ، المعترف بها من حُرَّاسِ القبور .

كلا . . ولا كان ذنبه أن ما قدمه إليه معلوم « لا مزية فيه للشاعر على غيره إلا في رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الصنعة ، ويا خيبة الشعر ويا سخف الحياة ، إن كان كثير من الناس لهم عقول يفهمون بها ، ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألقاظ منمّنة نضيدة وعبارات مرصعة وكلام مرصوص » ٧٤ .

« وشر من كل ذلك ، أمة تقتنى أثوابها من مغاور الموتى ، ثم تخرج في نور النهار متبججة بما تلبس من أكفان الجثث وأكسية القبور » ١٠٦ .

\* \* \*

ولن يجدى شيئاً أن ترجموا أبا القاسم بحجر ، فقد أعفاه الموت من لعنة الذين يوزعون على خلق الله صكوك التكفير والغفران ، ولم يعد في طاقتهم أن يزينوا تاريخ شاعرٍ خاض معركة الوجود القوي والأدبي لأتمته في فدائية واستبسال ، ومضى في عز شبابه شهيداً من شهدائها .

كما لن يجدى شيئاً أن نصيح في شباب الخليل بمثل تلك الصيحات المبتذلة عن قدسية القديم وذنس الفرنجة ، ولا أن نسحر عقولهم ووجدانهم ، بالخليل الساذجة عن فخامة الديباجة ونصاعة الأسلوب ووقع الرنين وإحكام الصياغة وجودة السبك . . .

كلا . .

ولا في طاقة القوى الرجعية مجتمعة ، أن تضع عصاية على عيون الشباب وآذانهم في عصر الترانزستور وجيل غزو الفضاء ، وأن تخنق فيهم حس الحياة وروح العصر ونبض الوجود .

وإنما الذى يجدى حقاً أن نبذل الجهد كله . لنقدم إلى الشباب روائع أدبنا . ونستخلص قيماً جديدة لكل رصيدنا منه ؛ قديمه والحديث . ونضبط موازينه النقدية بضوابط تستجيب لمنطق الفن والحياة .

وبغير هذا لا مجال للأمل في وضع حدٍّ للمأساة الضياع الفكرى التى تضغط شبابنا جميعاً بين شقى الرحى . وتمزقهم بين جمود عقيم كافر بالتطور لا يحس سير الزمن ودعاء الحياة . وبين حديث طارئٍ يمسخ قديمنا ويجحده ؛ ولا يرى فيه إلا صنديق دَمى وأكفان موتى وأكسية أضرحة !

ورحم الله أبا القاسم . ما أقسى ما كابد ، وما أفدح ما احتمل وهو يسرى في الليل معلناً دعاء الفجر وموقظاً إرادة الحياة !

## صناديق الدُحَى ومقابر الأنبياء

الحوار هنا مع طائفة من كتابنا السائرين  
غرباً . وفيه نصفي إلى أصوات المبشرين  
بأرض جديدة غربية، وإلى أصداء المعاول التي  
أهوت على كل قديم لنا عريق، لاتبقي ولا تذر .  
وفيه ما يجعلو المناخ الفكرى لمن تلقوا زادهم  
الثقافى من الغرب ، فعاشوا فى وطنهم أجانب  
غرباء .

obeikandi.com

على الوطن الكبير يخفق اللواء الموحد ، عربىّ اللون والسمت والروح ، قد ارتكزت قاعدته على أعرق ما فى وجودنا من أصالة ، وأعمق ما فى تاريخنا من جذور .

وفى ظل هذا اللواء أتابع الحديث عن وجودنا الفكرى رجاء أن يساير وعينا القومى فى أصالته ، ويألف معه لوناً وصبغة ، ومزاجاً وروحاً .

أتابع تشخيص مأساة الضياع الفكرى الذى يرهق هذا الجيل بمكابدة الصراع بين تيارات أجنبية غريبة ، وبين جاذبية الأرض العريقة التى أنبتهم . . .

والحديث اليوم عن الأسباب القريبة المباشرة للمأساة ، أما أسبابها البعيدة فتلمس فيما شهدته دنيانا من حرص الاستعمار على أن يبتزنا من جذورنا لكى نتوه عن أنفسنا فى مهب الريح الغربية ، ونتنفس فى جو مشبع بالغزو الفكرى .

\* \* \*

وأحتاج لكى أجلو الموقف ، إلى أن أسترجع صدى لأصوات رجّت دنيانا، نحن أبناء هذا الجيل الذى لم يدرك فجر اليقظة ولم يعاصر رواد البعث، وإنما أدرك الفوج الذى جاء من بعدهم .

من بين هؤلاء من استطال فترة الانتقال ، وارتاب فى جدوى المحاولة التى لاذ بها الرواد الأولون ، حين التمسوا لنهضتنا المرجوة جذوراً من ماضينا العريق . وجلجلت أصواتٌ فى الأفق داعيةٌ إلى التحرر مما همته عتيقنا البالى؛ ومبشرة بأرض جديدة لا تمت إليه بأذى صلة .

وأصغت آذان فريق منا ونحن فى مطلع الصبا الباكر، إلى أصوات المعاول تهوى فى قسوة وإصرار، على الأسس التى أرساها فوق أرضنا ، أولئك الذين تولوا عبء إيقاظ الشرق فى داجى الظلمة ، وسهروا على مضاجع قومنا يهزونها بدعاء الفجر ، ويخايلونها برؤى مثيرة عن ماض لنا عريق ومجيد ، طوته المحن فى غيابة العصور الوسطى الإسلامية .

أصغت الآذان مثلاً، إلى صوت « إسماعيل مظهر » يقول في مقالات بمجلة المقتطف مهداة إلى « أستاذه وصديقه . يعقوب صروف ، في عالم الأرواح » : « لقد وطئت أقدام الجيش الفرنسي أرض مصر وتركبتها ، وأهل مصر في فجوة من كهف الزمان ، بل في أعتمق فجواته : ما تحركت فيهم شاعرية ولا انفجر فيهم انفعال . ولا اهتزت لهم مشاعر . لا يعوزنا لإثبات هذه النظرية ( ؟ ! ) من دليل» (١) . . . وتشتد ضربات المعول ، على « السيد جمال الدين الأفغانى » الذى ميزه من غيره من زعماء المتدينين عند الأستاذ إسماعيل مظهر ومن ذهب مذهبه « أنه أراد أن يتخذ من قوة الدين سبيلاً للتأثير السياسى والدعوة السياسية القائمة حول فكرة استقلال الشعوب الإسلامية ، وإعداد العدة لمقاومة النفوذ الأوروبى فى الشرق الإسلامى ( ؟ ! ) وقد تعلم السيد جمال الدين متحياً الأساليب العلمية العتيقة التى عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى ، فهو بذلك صورة مصغرة أو مكبرة لعصر من العصور البائدة فى تاريخ الفكر الإنسانى . وهو بنزعه السياسية أشبه الأشياء فى عصره بالثياكل الحفرية التى تعيش بيننا بجحائنها ، وإن رجعت بتاريخها إلى أبعد العصور إيغلاً فى أحشاء الزمان » .

هكذا مُسِخت أزهى عصور الحضارة الإنسانية التى حمل العرب المسلمون مشعلها فأضاءت للغرب ظلمات عصوره الوسطى ، وصارت عند الأستاذ مظهر عصوراً بائدة فى تاريخ الفكر الإنسانى . مع ما يشهد به الحق التاريخى من أنها كانت من أنضهر عصوره . وعلى أساسها كان سنطاسقُ حركةِ الإحياءِ "الرينسانس" التى بدأت بها أوروبا عصر النهضة الحديثة .

مُسخت لأن الذين حملوا لواء القيادة الحضارية فيها عرب مسلمون . وصارت جريمة السيد جمال الدين عند إسماعيل مظهر وأصحابه ، أنه أعاد إلينا صورة مصغرة أو مكبرة من علمائنا الذين يعتز بهم تاريخ الفكر البشرى والحضارة الإنسانية . . .

وكانت تهمة ، " أنه دعا إلى استقلال الشعوب الإسلامية ، وإعدادها لمقاومة النفوذ الأوروبى فى الشرق الإسلامى ! " .

( ١ ) لم أستطع أن أستخلص من هذه العبارة ، ما يدخل فى النظريات ، إلا أن يعنى بها الأستاذ مظهر « نظرية كهف الزمان » !

ثم يمضي الموعول نافذاً بضرباته الحادة إلى أعماق وجودنا في شخص جمال الدين الذي عدّه إسماعيل مظهر « وريث العرب بحق في علومهم وفلسفتهم، وقف من الرق حيث وقفوا عند النظر الغيبي . فكان كل ما دبجته يراعته أو تحرك به لسانه، مثلاً حياً لما اختلط من مباحث آباءهم في كتب اختلط فيها العلم بالفن . يُسخر ج من مجموعها فلسفةً هي عنوان ما بلغ الفكر الإنساني من تمهوش وانحلال في القرون الوسطى . . فإذا نظرت فيما أبرز العرب من صور الفكر ، من علم أو أدب أو فلسفة أو فن . وجدت أن فيها من آثار التخلخل والتشعب ما هو جدير بأن يبرز في عصرٍ عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغيبي لم يعدّها إلى طريقة التحليل والنقد . ذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون ، وجأهم من النساطرة واليهود وثنيي حران . عن اليونانية ، واكتنك لا تجد عندهم مدارس فلسفية ينسب إليهم ابتكارها . . »

وكل المذاهب الفلسفية للعرب ، عند إسماعيل مظهر : « مذاهب لاهوتية (! ؟) استعانت بالفلسفة وبعض ضرورها دون بعض » .

وكل مؤلفاتهم ، حتى العلمية منها ، وُسمت بطابع عقليتهم : « هذه العقلية بذاتها هي التي ورثها السيد جمال الدين الأفغاني ووقفت عند الأسلوب الغيبي . وتنكبت كل طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب اليقيني » .

ولا يجدي أن تسأل الأستاذ مظهر عما إذا كانت هناك لاهوتية في الإسلام ؟ كما لا يجدي أن تذكره بما غفل عنه من المحجذ العلمي الذي ازدهر في الحضارة الإسلامية . واعترف علماء الغرب أنفسهم بأنه كان الأساس الراسخ للعلم الحديث<sup>(١)</sup> .

كذلك لا يجدي أن تلفته إلى الفرق الشاسع بين العصر الإسلامي الوسيط ، بكل حيويته وازدهاره . وبين العصور الغربية الوسطى بكل ظلامها وجمودها . . .

(١) انظر في ذلك مثلاً : « حضارة العرب » لجوستاف لوبون - ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . « شمس الله على الغرب » للباحثة الألمانية سيجيريد هونكه ، ترجمة د . فؤاد حسين . مكتبة النهضة . . . « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي . ترجمة د . صلاح حاتم . نشر جامعة الدول العربية . وقرأ « تراثنا بين شرق وغرب » في كتاب « تراثنا بين ماضٍ وحاضر » ط معهد الدراسات العربية ، ودار المعارف .

كلا . . لا يجدى شيء من هذا ومثله ، مع ما ترى من إصرار القوم على أن الحضارة حين صارت إلينا قيادتها في العصر الوسيط ، هوت بالفكر الإنساني إلى تهوش وانحلال ، وتنكبت كل طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب العلمي ! !

\* \* \*

ومع صوت « إسماعيل مظهر ، تلميذ يعقوب صروف » ارتفع صوت « سلامة موسى » الذي لم ير في ماضينا العربي خيراً قط ، ولا وجد في تاريخ الحضارة الإسلامية بذرة تصلح للبقاء ، بل إنه حين نشر كتابه ( هؤلاء علموني ) لم يسمح لأى مفكر عربي أن يأخذ مكاناً ولو في ذيل الموكب الجليل للمعلمي سلامة موسى : تولستوى وماركس وبافلوف ودستوفسكى ، وفرويد وأدلر ويونج وهافلوك أليس ، إلى آخر القائمة الأجنبية التي ليس فيها اسم عربي واحد .

وكنا نسمع هذه الأصوات في مطلع صباحنا ، ومنا من نشأ - مثل - في بيئة دينية محافظة ، وصلته بأعجاز الحضارة الإسلامية وروائع التراث الفكرى والأدبى للعرب ، واستشرف لآفاق المنهج الإسلامى للمعرفة ، ووعى من آيات كتاب ديننا قيماً إنسانية ومثلاً علياً لا تطمح البشرية إلى أعز منها ، وحفظ كلمات كباراً لأئمة سلفوا ، قررت كرامة الإنسان وشرف العلم وحرية الكلمة ، من قبل أن تسمع الدنيا بهؤلاء الفرنجة الذين علموا السائرين غرباً !

ومنا من لم يتح له شيء من ذلك قط ، أثراً لنشأته في بيئة متفرنجة مزهوة بعصريتها مفتونة بجديدها المحدث ، فهى تسلم عقلها وضميرها إلى رسل الغرب ، وترى فيهم أنبياء العصر !

\* \* \*

وكان من الممكن أن يتيح لنا وعيُنا القومى هضمّ الثقافات الغربية دون اتخاذها أصلاً نسي فيه أصلنا . كان من الممكن أن نسعى إلى بناء حياتنا الجديدة فوق أرضنا . مع إخصابها بمستوردٍ من جديد الفكر والقرن . .

لكن الذى حدث فعلاً هو أن الكثرة من أصحاب القديم جمدت على قديمها في رجعية كافرة بالتطور ، ففقدت كل صلة بالعصر والحياة . كما أن الكثرة من

أصحاب الحديد فُتِنَتْ بِمُحْدَثَيْهَا وفقدت كل اتصال بقديمتنا ، فعز على القلة التي احتفظت برشدها واتزانها بين التيارين المتضادين ، أن تحمى جمهرة الشباب العربي من مأساة الحيرة والتمزق .

وقد رأينا في شاعرنا «الشابي» نموذجاً ممن ضغطتهم المأساة فالتمسوا الخلاص لقومهم في تحطيم أغلال الجحود والغفلة ، ونبذ كل قديم عرفوه .

وهناك آخرون ، انزلوا تماماً عن وجودنا وتراثنا ، فأرهقتهم عقدة الشعور بأن العروبة سمة تأخر وتخلف ، وأن الإسلامية لاهوتية معطلة للتطور والتقدم . وتوهموا أن خلاصنا في انتزاع ذواتنا من أرضنا المشبعة برى الإسلام ، لنزرعها في أرض غريبة لا نَسْمُتُ إليها بأدنى سبب !

ومن شاء أن يلمح أبعاد المأساة ، فليقرأ كتاب الأديب « غالى شكرى » :  
 "سلامة موسى وأزمة الضمير العربي المعاصر" نموذجاً لتفكير شباب وصلتهم بسلامة موسى أبوة فكرية وروحية ، وتأثروا بالأصوات التي ترددت في الأفق داعية إلى نبذ قديمتنا كله ، ومبشرة بأرض جديدة لا جذور لنا فيها .

إن دعوات الإصلاح الاجتماعي والتفكير العلمي وكل ما هو من التطور والتقدم بسبب ، تبدأ عند هذه الطائفة من شبابنا بسلامة موسى ، وهو قد تلقاها من الغرب مباشرة حيث سافر إلى أوروبا وهو في الثامنة عشرة من عمره ، فوجد هناك طريق الخلاص ، وعاش فترة التلمذة بعيداً عن « الهياكل الحفرية في أعماق فجوة من كهف الزمان » كنص عبارة إسماعيل مظهر !

فأى عجب في أن يكفر أديب شاب – له تلك الأبوة في الفكر والعقيدة – بكل ما لنا من تراث فكري وميراث روحي ، وألا يفرق بين الأديان ورجال الدين « لأن الدين غالباً يتمثل في كهنته الذين يعينهم في الكثير أن يتجمد الوضع القائم في قوالب حديدية أسموها : تعاليم السماء ونواميس الله ، وغيرها من الأسماء الكهنوتية .. » فإذا جاء كتاب ديني ليصور ذلك المجتمع البعيد. وجب أن ندرسه من الزاوية التاريخية لا أن نطبق تلك القيم بصورة آلية على حياتنا الحديثة وكأننا نقوم بعملية انتحارية نهدف منها أن نزرع بقوام مجتمعنا داخل صناديق حديدية صغيرة لا تتسع إلا للدمي (!!) فما كان يتسع لطفولة الجنس البشري . لا ريب

أن يضيق عليه في شبابه « ص ٢١٠ (١) .

ثم يتناول الأديب الشاب معوله، فيهوى به على الكتاب الذين لم يبشروا مع سلامة موسى بالأرض الحديدية « فقد تمكنت القوى الرجعية من اجتذاب أكثرهم والانحراف بهم إلى طريق مصالحها » .

وعد من هؤلاء الذين انحرفت بهم الرجعية :

« محمد حسين هيكل ، إذ يدع جان جاك روسو جانباً، ويهرول إلى التاريخ

الإسلامي . يجتر منه أفكاراً بالية » ص ٢٠ .

« وزكى نجيب محمود في ” الشرق الفنان “ يتبنى أكثر النظريات رجعية في

الفكر الأوربي . حين يقسم العالم إلى شرق وغرب : الشرق محراب الروح والغرب محراب المادة . لا لشيء إلا لأن الطبيعة أرادت للشرق أن يظل شرقاً وللغرب أن يظل غرباً ! أن يفوز الشرق إلى الأبد بمركزه الاستراتيجي في مقابر الأنبياء ، وأن يفوز الغرب إلى الأبد بناصية العلم والتقدم . أي أننا يجب أن نتشح بالسواد فقد كتب علينا التخلف في لوح القدر الذي تعظه أنامل الدكتور نجيب محمود ، التي فقدت الحياة فيما يبدو » ص ١٤٣ .

ولا أوم الكاتب الشاب، وقد قرأت كتابه كله وملء نفسي شعور بالعطف والفهم . وما نقلت الذي نقلته منه إلا لكي يرى قادة الفكر فينا، صورة صادقة لمأساة الضياع الفكري الذي شد عقول طائفة من أبنائنا إلى مُحدث الغرب، دون أن يُسبق لهم على شيء يربطهم بجذورهم في الأرض التي تبدو لهم خراباً ، وقد عرفها التاريخ زماناً صانعة للحضارة ؛ والتي مُسِخت في ضمير هذا الشباب ووعيمهم فلم يعودوا يرون فيها إلا الصناديق الحديدية للدمى ، ومتحف الهياكل الحفرية ، ومقابر الأنبياء . . .

(١) الأرقام هنا ، وفيما يلي ، تشير إلى صفحات كتاب : (سلامة موسى وأزمة التفسير العربي

## الأدب المعاصر بين الاندماج والتميز

يستطيع الأديب المعاصر أن يصغى إلى نبض الحياة في أضيق زقاق من قرينته التي لا موضع لها على أى مصور جغرافى ، محلقاً في الوقت نفسه في رحاب الأفق الإنسانى فوق كل الحدود .

وجوهر المعاصرة ليس في أن يُشغل الأديب بما يشغل به عامة الناس في زمانه، ولكن في أن ينفذ ببصيرته الملهمة وحسه المرهف إلى العمق الغائر تحت السطوح البادية ، ليصغى إلى النبض الوجدانى لإنسانِ العصر أينما كان . وبقدر ما يتميز العمل الأدبى تكون أصالته وفرصته للعالمية والخلود .



( ٢ )

## المعاصرة والمكان

- إنسانية الأدب ومحليته
- الأدب المعاصر بين الاندماج والتميز
- عزلة الأديب

-

obeikandi.com

وجلاء المفهوم الزمنى للمعاصرة . بما يحدد موقف أدبنا المعاصر بين الماضى والحاضر . ينقلنا مباشرة إلى النظر فى البُعد المكائى لأدبنا ، لنستبين موقفه بين الإنسانية العالمية . وبين بيئته المحلية .

أو بمصطلح النقد الحديث : موقف أدبنا المعاصر بين الاندماج والتمييز : الاندماج الذى يُلقى طابعه المحلى المحدود . ليكون - فيما زعموا - أدباً عالمياً إنسانياً .

والتمييز الذى يفرده عن الآداب الأخرى ، بما يحمل من طابع بيئته وسمات بلده .

والحق ألا تعارض إطلاقاً بين الإنسانية والمحلية . فالإنسان إنسان . على سفوح الجبال وفى كهوف الأدغال أو فى منبسط السهول ومجاهل البيد... فى أحياء العواصم الكبرى أو فى أكواخ الصيادين ومضارب البدو وقرى الريف .

ويستطيع الأديب المعاصر أن يصغى إلى نبض الحياة فى أضيق زقاق من قريته التى لا موضع لها على أى مصور جغرافى ، محلقاً فى الوقت نفسه فى رحاب الأفق الإنسانى ، فوق كل الحدود .

كلا . لا تعارض إطلاقاً بين الإنسانية فى أوسع عمومها المطلق ، وبين المحلية فى أضيق زواياها الخاصة ، وإنما ينشأ الوهم حين يتصور بعضنا أن أدبنا لن يكون عالمياً إلا إذا انطلق من حدود بيئته الضيقة إلى العالم الكبير .

بل ربما خطر بالبال أن الوسيلة إلى عالمية أدبنا المعاصر . هى أن يُسهَم فى الأدب الغربى ويكتب باللغات الأوربية . وأنقل هنا من حوار بين الزميل « الدكتور مجدى وهبة » وبين الشاعر الإنجليزى « ستيفن سبندر »<sup>(١)</sup> :

— هل ترى أن الكُتّاب الإفريقيين الآسيويين يستطيعون أن يسهموا فى الأدب الأوروبى والأمريكى ؟

(١) كان هذا الحديث لمناسبة مرور الشاعر بالقاهرة فى مارس ١٩٦١ ، وقد نشرته جريدة

الأهرام يوم ٢٤/٣/١٩٦١ .

« نعم ، هذا رأي بالتأكيد ، لأن آسيا وإفريقيا لا بد أن تلعبا دوراً تتزايد أهميته على الأيام في حياتنا ، فإنهما أصبحتا جزءاً من عالم واحد يتلاقى فيه على قدم المساواة ما يسمى بالقارات السمراء مع القارات البيضاء .  
— هل تعتقد أنه من المستطاع أن يتم هذا ، عن طريق كتابة الإفريقيين والآسيويين باللغات الأوروبية ؟

« أشك في هذا شكاً كبيراً ، فإنه في الوقت الذي نعيش فيه ، تتغير عبارات كل لغة تغيراً خفياً زائداً ، فكيف يستطيع كاتب في بمباي أو نيجيريا أن يعكس هذه التغيرات في تعبيره الأدبي بغير لغته؟ . . .

« هناك بالطبع دائماً استثناءات ، فبعض الهنود مثل الشاب ”دوم موريس“ يُظهر فصاحة ورقة في إنجليزية يندر وجودهما عند كتابنا أنفسهم ، ولكن أرى على العموم أنه من الخطأ أن يكون الهم الأول للكاتب الإفريقي أو الآسيوي ، أن يلمع في الأدب بعالم ينظم الإنجليزية أو الفرنسية . فن الواضح مثلاً أن اهتمام الهنود باللغة الإنجليزية وثقافتها وضع لغاتهم وثقافتهم القومية في مركز ثانوي حتى داخل بلادهم ، وأنا أعتبر نفسي دوليَّ الولاء ، إلا أنني أعتقد أنه قد يكون محزناً إذا لم تنفض آسيا وإفريقيا غبار الاستعمار إلا لتجدنا نفسيهما أقل اعتباراً في عالم ثقافة يسيطر عليه الغرب» .

— هل ترى إذن أن يتركوا اللغات الغربية ؟

« لا.. بل أرى أن تَمَكَّنَ المثقفين الإفريقيين والآسيويين من الإنجليزية ، وإلى حد ما من الفرنسية ، ميزة كبيرة لهم ولنا جميعاً . ولكن ينبغي أن يعرفوا جيداً أن اللغات الغربية ليست بالنسبة لهم سوى أداة للتجارة والسياسة .

«وأميل إلى الاعتقاد بأن ”طاغور، وليو بولد سنجور، ودوم موريس“ مجرد استثناء وليسوا قاعدة للآخرين الذين أنصح لهم بالكتابة في لغاتهم وتنمية ثقافتهم حتى يتكروا أدباً يضطر الغرب أن يتعلمه كما تعلم الشرق من ”شكسبير وراسين“ . . .  
واليابان تقدم لنا نموذجاً لما ينبغي أن يعمل : فاليابانيون يكتبون قصصاً معاصرة باليابانية ، ولديهم مترجمون ممتازون استطاعوا أن يسبقوا على كاتب مثل ”جوري ميشيا“ شهرة عالمية أكبر مما لو كان كتب قصصه بالإنجليزية» .

وندع الآن موضوع اللغة ، لنقف عند السؤال عن إسهام كُتابنا في الأدب الأوربي والأمريكى ، من حيث دلالاته على فهم المجال الحيوى لأدبنا المعاصر وراء حدود بيئته ووطنه ، لكى يفرض وجوده على النطاق العالمى . على حين يرى شاعر غربى ، دولى الولاء ، أن من الخطأ أن يكون همُّ الكاتب منا أن يلمع في عالم الأدب الإنجليزى أو الفرنسى ، ويحزنه أن نتخلى عن الطابع القومى لأدبنا ، ونلقى به عمداً في منطقة الظل ، فكأننا لم ننفص عنا غبار الاستعمار إلا لنجد أنفسنا في منزلة هابطة في عالم ثقافة يسيطر عليه الغرب .

وشهادة « سبندر » لجورى ميشيا بأن قصصه اليابانية نالت شهرة عالمية أكبر مما لو كانت كتبت بالإنجليزية ، هذه الشهادة لا تعبر عن رأى خاص للشاعر الإنجليزى ، بل إنها فيما أعلم تعبر عن رأى عام لأدباء الغرب ، فالذين لقيتهم من هؤلاء الأدباء ، يؤكدون أن الغربيين إنما يلمسون في أدبنا ما يعبر عن حياتنا نحن لا عن حياتهم هم! ولديهم أدباؤهم يقدمون لهم التعبير الوجدانى عن بيئاتهم بأصالة واقتدار هيات أن يتاحا لأديب شرقى غريب . إلا أن يكون استثناء !

وأذكر ممن لقيت ، الأديب النمساوى الكبير « ماكس رايش » الذى حرص على أن يأخذ عنا ما يقدمه إلى قومه المشوقين إلى ما يحمل طابع الشرق . وفى لقاء لى مع الأديب الإيطالى المشهور « إيجنازيو سيلونى » فى روما خريف عام ١٩٦١ ، ثم فى القاهرة فى يناير ١٩٦٢ ، عرض لى أن أسأله :

— هل فى إمكان أدبنا المعاصر أن يأخذ مكانه فى الأدب العالمى ؟

وكان جوابه :

« إن صلتنا نحن الغربيين بأدابكم غير كافية ، ولعل الذنب فى ذلك ذنبنا . وشعورنا بهذا التقصير هو الذى يجعلنا نريد أن نعرف ماذا تكتبون عن عواطف جيلكم وعن قلقه وهمومه ، وموقفه الوجدانى من الأحداث التى لم تشهد الأجيال السابقة لها مثيلاً . وعلى أساس ما نشعر به نحوكم من تعاطف ، وما نعرف لكم من ماضى حضارى عريق ومن حاضر ثورى واع ، نقدر ألا شىء يحول بين أدبكم وبين المستوى العالمى » .

ثم استطرده متمهلاً عند عقدة الموقف . فقال في ثقة وحسم :

«أرجو ألا يُفهم من هذا أن عالمية أدبكم تقتضى أو تعنى محو طابعه المحلى وسماته القومية ، فنحن نجتاز في الوقت الحاضر مرحلة تمايز بين الثقافات والآداب بدلاً من دمجها وإذابة الفروق بينها . وهذا الموقف لم يأت عبثاً ولا كان باختيارنا ، وإنما فرضته علينا طبيعة الفروق بين البيئات ، وحسبكم به الواقع الذى يجعل لكل منا شخصية متميزة . والذين تطلعوا إلى الدمج الأدبى ، تصوروا أن مثل هذا يمكن أن يُدرك بالقسر أو يتحقق بالعمد ، سعيًا وراء تدويل الأدب . ولكن الطبيعة تأبى أن تعرف بأدب عام لأقوام اختلفت أمزجتهم وعقلياتهم وتفاوت ميراثهم النفسى والحضارى ، ولهذا نود أن نقرأ أدبكم عربياً شقيقاً متميزاً ، لأنه إنما يأخذ مكانه أدباً عالمياً . بأصالته وتفرده .»

\*\*\*

والغريب حقاً ، أننا في السياسة المعاصرة نعرف بالحكم المحلى ونتجه إلى تدعيمه . تقديراً للخصائص المميزة لإقليم عن آخر في الوطن الواحد ، على حين يتداعى قوم منا بأن يتجاوز الأدب بيئته ويتجافى عن وطنه ، ليكون عالمياً إنسانياً !

والواقع أننا نخلط هنا بين عالمية الأدب وإنسانيته . والأدب حين يقدم نموذج الإنسانى من أى جنس أو لون . فليس لأحد أن يقول التجربة محصورة في نطاق ضيق يعدها عن جوهر الإنسانية في عمومها المطلق . ولا دخل للإنسانية في الموضوع ، إلا إذا زعم زاعم أن صياد همنجواى يختلف في جوهر إنسانيته عن جندى كافكا أو مقامر دستوفسكى أو طبيب باسترناك أو ناس جوجول أو مومس سارتر أو بانس هيجو أو بخيل موليير أو فارس سرقانتس أو العم نوم لهاريت بيتشستو . . .

وخلود الآثار الأدبية التى كتبت في زمان غير زماننا ، يؤكد الفكرة ويجلوها : إن العمل الأدبى يحمل بلا ريب طابع عصره ، ولا يمنع هذا من بقائه بعد أن يمضى العصر وتتغير الدنيا . فكما نفع اليوم بآثار أدبية تأتينا من وراء العصور والآباد ، نفع كذلك بالأدب الأصيل يأتينا من خيام البدو أو ناطحات

السحاب ، من شطوط الأنهار أو من قمم الجبال الشامخات . . إذا أقنعتنا بصدقه إلى الحد الذى يحقق المشاركة الوجدانية .

وكما لا دخل للإنسانية فى موضوع قدم الأدب أو حدائته . لا دخل لها كذلك فى مكانه ومسرحه ، ومهما تباعد الفروق والآماد بين راكب الناقة وراكب سفينة الفضاء . فليست بحيث تسمى الجوهر المشترك لشريرتهما الممثلة .

لا وجه إذن لإقحام الإنسانية فى موقف أدبنا بين المحلية والعالمية . فالتميز مظهر أصالة وآية صدق . وبقدر ما يتدبّر العمل الأدبى ويفرد بطابعه الخاص ، تكون فرصته للعالمية والخلود . وما أخذت «رباعيات الخيام» مكانها بين الآداب العالمية إلا بكونها فارسية صميمة . ولا عاشت شخصية «دون كيشوت» إلا بكونها إسبانية خالصة . ولا انطلقت «أنا كارينينا» إلى الأفق العالمى إلا بكونها روسية أصيلة ، ولا عبرت «رسالة الغفران» حدود المجال العربى إلى المجال العالمى . إلا بكونها علائقية متميزة .

ذلك أن إنسانية الأدب . نادراً ما تتحقق بعيداً عن عمق المعاناة فى الملابس الوجدانية للموضوع الأدبى . حدثاً كان أو إنساناً أو كائناً ما كلن . وفى رحاب الإنسانية يلتقى أدباء من أقطار شتى وعصور متباعدة وأجناس متفاوتة ، عبروا عن بيئاتهم بأصالة واقتدار ، وعاشوا هموم دنياهم فى معاناة صادقة وملابسة عميقة . واندجت ذاتيتهم الفردية الجماعية فى الذاتية الإنسانية فجاءت أعمالهم الفنية كاشفة عن جوهر الإنسان ، فى دروب أسبانيا وحانات الفرس وسفوح كليمانجارو وقمم الأطلس ونجوع الصعيد، أو فيوردات البلطيق وسهوب سيبيريا وقنوات البندقية . . .

فى رؤى شاعر ضريبر حببىس بيته بقرية من قرى الشام ، أو خيال شاعر إيطالى فى فلورنسا . . .

وجوهر المعاصرة ليس فى أن يُشغل الأديب بما يشغل عامة الناس فى زمنه ، ولكن فى أن ينفذ ببصيرته الثاقبة الملهممة وحسه المرهف إلى العمق الغائر وراء الأبعاد الظاهرة والسفوح البادية ، ليصغى إلى النبض الوجدانى لإنسان العصر أينما كان ! ذلك النبض الذى قلما يحسه عامة الناس فيما يشغلهم من هموم العيش وصراع الوجود . . .

obeikandi.com

## عزلة الأديب

مقياس المعاصرة لا يرفض أى عمل أدبي يعبر  
في صدق ومعاناة وأصالة ، عن بيئة منعزلة .  
وكما يكون الهروب من الزحام التماساً لعمق  
المعاناة وأناة التمثل وجلوة التأمل ونفاذ الرؤية ،  
يكون أيضاً فراراً من بشاعة الواقع عن يأس  
منه أو رفض له ، وكلا الموقفين تعبير عن  
جانب من حياة إنسان العصر في اصطدامه  
بواقعه .



ويعرض سؤال : أليست هناك بيئات معزولة تماماً عن مناخ عصرنا . تعيش حياتها أقرب ما تكون إلى المراحل البدائية للبشرية ، فهل ينتمى أدياء هذه البيئات إلى العصر الحديث الذى نعيش فيه ؟

وأجيب : أجل . رغم ما أجد من مشقة فى تصور إمكان هذه العزلة التامة فى عصرنا الذى يكتسح تياره أمنع الأسوار ، وتقتحم أنفاسه عصى الحدود .

وأحسب أن ربح العصر لا يعيها أن تتسرب مع الرحالة المكتشفين والسائحين والتجار المغامرين . إلى مضارب البدو فى جوف الصحراء ، ومناطق الجليد القطبية والغابات الاستوائية . ولكن إذا افترضنا أن هناك مناطق أحكمت حولها أسوار العزلة ، فإن أدياءها هم القادرون على أن ينقلوا إلينا صورة فنية لحياة قومهم ، ومن ثم يكون أدبهم وثيقة أدبية معاصرة ، لها قيمتها فى استكمال الملامح النفسية والمزاجية لمن يظلمهم زماننا ، وفيها نجتلى وقع الوجود على وجدانهم ، ونستبين تفسيرهم الأدبى للكون والحياة ، على نحو ما يفعل مؤرخو الحضارة حين يلتمسون هناك خصائص البيئات المنعزلة ، ويرصدون خطوات الإنسان فى مراحل زمنية سابقة ، ويكتشفون ما تركت من ميراثها لإنسان عصرنا .

ولست أرى أن نرفض بمقياس المعاصرة أى عمل أدبى يعبر فى صدق عن بيئة منعزلة عن زمننا .

بل الذى يرفضه المقياس هو الصور الزائفة التى ترسمها أقلامٌ من لم يعيشوا هناك ، وتعوزهم أصالة التجربة وحيوية المعاناة .

والفرق واضح تماماً ، بين ما يقدمه لنا شاعر بدوى فى زمننا من وقفة على أطلال دياره فى البادية ، وبين أن يقف بنا عليها شاعر لم يبرح منزله فى الحواضر .

بل الفرق واضح كذلك ، بين أسطورة يونانية يقدمها إلينا أديب أوربى معاصر ، يمتلك سرها ويجدها فى عميق وجدانه وتراث شعبه ، وبين الأسطورة نفسها يلتقطها أديب عربى من تراث اليونان ، دون أن يتمثلها ويعبى سرها ورموزها . وهذا هو ما دعا الدكتور مندور إلى أن يتساءل فى (ميزانه الجديد) :

« الفن يسمى إلى خلق الحياة ، فكيف يخلق الحياة من يجهلها ؟ » ص ٩ .  
 فإذا قيل : إن من الأدباء من يستغنون عن التجربة المباشرة بقراءة ما كتبه  
 الذين عاشوا في مسرحها الأصيل ، شأنهم في ذلك شأن من يكتب القصة التاريخية  
 بعد أن يطالع ما وعى التاريخ من أحداث عصرها وشخصيات أبطالها .

قلنا : إن الأمر في الحاليين رهن بمدى تمثل الأديب للمسرح الثاى ، وطاقته  
 على ملابسة أحداثه ومعايشة واقعه ، واقتدازه على ملح أخفى أسراره والتقاط أدق  
 نبضاته وخلجاته ، على تنأى الأبعاد والآماد . . .

\* \* \*

وماذا عن الأبراج العاجية وانفصال أدبها عن واقع الحياة ومناخ العصر ؟  
 الأبراج العازلة، قد تكون من عاج وقد تكون من فولاذ أو ما هو أصلب وأمنع  
 من الفولاذ .

فهناك من ينسحبون من معترك الدنيا تحت ضغط أزمة نفسية ساحقة أو محنة  
 عاتية ، ليعيشوا في الأديرة أو الصوامع والكهوف . . والأديب من هؤلاء يقدم لنا  
 العالم الوجدانى لنمط من إنسان العصر تحت ضغط المحنة ، وكذلك يفعل الأديب  
 الذى يساق إلى السجن ، فتأتينا أنفاسه من وراء القضبان كاشفةً عن معاناةٍ  
 باهظة لتجربة إنسانية هيهات أن يعرفها إلا من يكابدها .

فهل ترانا نرفض هذا الأدب ، بدعوى عزلته عن الحياة ونأيه عن العصر ؟  
 كلا . . بل نمضى إلى أبعد من هذا ، فنقدر أن أى أديب طليق ، في  
 حاجة إلى قدر من العزلة ترهف حسه وتُفسح من آفاق رؤاه، وتتيح له أن يصغى  
 إلى دعاء الإلهام ونبض الوجود ، بعيداً عن صخب الزحام .

وفي حديثٍ لهيمنجواى قبل أن يمضى ، وقد سأله مراسل مجلة باريسية عما يبدو  
 واضحاً من ميله إلى العزلة في السنوات الأخيرة ، قال :

« الواقع أن هذه مشكلة معقدة ، لأنك كلما استغرقت في الكتابة بعدت  
 عن الناس ولم تلقهم إلا نادراً ، ولكنك في الواقع تتصل بهم وتعيش معهم أثناء  
 الكتابة . ووقتي أضيق من أن يني بكل ما أريد أن أكتبه ، فإذا ضيقت جزءاً

من هذا الوقت ، فإنني أرتكب جريمة في حق نفسي لا تغتفر « (١) .  
 و « هيمنجواي » قد التفت إلى أن الأديب في عزلته عن الناس أثناء استغراقه  
 في الكتابة ، يتصل بهم ويعيش معهم فيما يكتب . لكنه اكتفى بعد ذلك بتبرير  
 العزلة ، بالحاجة إلى الوقت . وعند ضياع جزء منه جريمة في حق نفسه لا تغتفر ..  
 والذي أراه ، أن حاجة الأديب إلى العزلة ، ليست مسألة توفير وقت للكتابة  
 فحسب ، وإنما هي ، بصرف النظر عن قيمة الوقت ، ضرورة لا غنى عنها  
 للخلق الفني . والأدباء الذين تلفهم دوامة من شواغل الدنيا وهموم العيش ، أو  
 تفرض عليهم ظروفهم المادية والاجتماعية الخوض في زحام الدنيا ، يُلْقون إليها  
 ظاهر سمعهم وبصرهم ، وعالمهم النفسي يهيم بعيداً لاجتلاء الرؤى المحجبة وراء  
 أبعاد الواقع وآفاق المنظور ، فهم في الزحام حاضرون غائبون . . .

\* \* \*

وكما يكون الهروب من الزحام التماساً لعمق المعاناة وأناة التمثل وجلوة التأمل  
 ونفاذ الرؤية ، يكون أيضاً فراراً من بشاعة الواقع ، عن بأس منه أو عن رفض له .  
 وكلا الموقفين تعبير عن جانب من حياة إنسان العصر في اصطدامه بواقعه . وإذا  
 شاع في بيئة من البيئات أدبُ الزهد، أو جَسَدَ الأدب إلى العزلة فهام في عالم  
 بعيد عن واقعه ، فليس ينبغي أن نتجاف عنه لبعده عن مناخ العصر ، وإنما الواجب  
 أن نرصد ما وراء هذه الظاهرة من أوضاع اقتضتها واحتكمت في اتجاه الأدب إليها .  
 ذلك أن ما يبدو من عزلة الأديب عن مجتمع عصره ، قد يكون في حقيقة  
 الأمر التزاماً صارماً بقضية هذا المجتمع . ومن ثم لا تكون عزلة الأديب مظهراً  
 لسلبيته ، بقدر ما هي تعبير صريح عن موقفه ، ورفض جهير معلن ، لأوضاع  
 لا يرضى عنها أو لا يستطيع أن يسايرها . .

ولعل مثل هذا الأديب ، قادر على أن يخوض وهو في صميم عزلته ، معركة  
 وجود أمته ، وأن يقدم لها من وراء الجدران أدباً حياً نابضاً بروح العصر ،

(١) كان هذا الحديث مع الصحافي جورج بليستون مراسل « باريس ريفيو » وقد نشر الأهرام

معبراً عن معاناة إنسان مرهف الحس . اختار هذا الموقف للتضال كما يختار سياسى مجاهد سلاح العصيان المدنى فى مقاومته للاستعباد والظغيان .

وأعترف بأنى أدين لشاعرى « أبى العلاء » بتصحيح فكرتى عن عزلة الأديب ، حيث تعطينا آثاره الأدبية نماذج فذة لأديب يعيش فى أبراج أصلب من الفولاذ : امتحنه القدر بالعمى طفلاً ، فألقى بينه وبين الدنيا حجائباً أصم كثيفاً من حاللك الظلام ، ثم انسحب من المعترك شاباً ، فلزم داره بمعة النعمان نحو نصف قرن من الزمان ، لا يذكر التاريخ أنه تخطى عتبتها إلا مرة واحدة لم تتكرر ، فى سفارته لأهل المعرفة لدى « صالح بن مرداس » وقد حملته مروءته على أن يستجيب لرجاء قومه ، فخرج وهو لهذا الخروج كاره ، ثم آب من يومه فأقام فى محبسه لم يبرحه إلا يوم حملوه فشيوعه إلى مضجعه الأخير فى ثرى المعرفة .

ولكن تلك الحواجز العاتية ، لم تعزل وجدانه عن العصر ، ولم تسدل على بصيرته الغطاء ، بل عاد مع العزلة وبها ، مرهف الحس يقظ الشعور طليق التأمل ثاقب البصيرة ! فجاءت آثاره مؤكدة أنه البصير الذى خبر واقع الدنيا كما لم يخبره الغارقون إلى أذقانهم فى خضصها . المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها التائهون فى زحامها .

ولم يكن انسحابه من الدنيا سلبية منعزلة . بل كان احتجاجاً عملياً على فساد البيئة ، ورفضاً صارماً لأوضاع لثيمة تسود عصره .. وهكذا يظل علينا أبو العلاء من وراء عشرة قرون . فنراه فى سجونته الثلاثة الأديب المناضل الحر ، الذى اشترى بكل الدنيا أمانة الضمير وشرف الكلمة وشجاعة الرأى .

وهذا الموقف . يوجهنا مباشرة إلى النظر فى قضية الالتزام وما يثار من خصومة فيها بين القائلين بالفرن للفرن ، والقائلين بالفرن للمجتمع .

( ٣ )

## الأدب المعاصر وقضية الالتزام

- الالتزام والإلزام
- الفن للفن ، والفن للمجتمع
- حرية الأديب
- ثورية الأدب والالتزام
- حوار حول الثورة والأدب

obeikandi.com

## الالتزام والإلزام

الالتزام قديم قدم الفن نفسه، لكن احتدام الصراع المذهبي في السياسة المعاصرة نقل القضية إلى دوامة هذا الصراع .  
والخصومة في الالتزام ، لم تنشأ إلا عن خلط بينه وبين الإلزام .



والالتزام إذا كان معناه أن يتصدى الأديب للنضال الفنى عن قضايا قومه فالذى يعرفه التاريخ أن مثل هذا الالتزام قديم قدم الفن نفسه ؛ فنذ بدأ الإنسان يعبر عن وجدانه تعبيراً فنياً بالكلمة أو النغم أو الرسم والنحت ، كان هناك دائماً من يحملون عبء النضال عن وجود الجماعة ، وينفذون بحسبهم المرهف إلى ما فى أعماقها من هواجس وهموم ، ويتطلعون إلى البعيد والخفى من أماني طموحها . وهل كانت وظيفة شعراء القبائل ، إلا التزاماً بتبعة وجودها ، ومسئولية قيادتها ، وأمانة قضاياها ؟ (١)

وإن كان معناه التزام الأديب بمسيرة وضع سائد فى مجتمعه ، وتأييد نظام مقرر على قومه ، فكذلك كانت الجماهرة الغالبة من الأدباء فى كل عصر وكل مجتمع ، تسير الأوضاع السائدة وتتولى لها مهمة التعبئة الوجدانية عن طريق الإعلام والتبرير أو التخدير والتزوير .

فإن قصد بالالتزام أن يكون الفن سلاحاً فى أيدي السلطة الحاكمة فردية أو حزبية ، فذلك ما عرفه التاريخ أيضاً فى الكثرة الكاثرة من ملثوا الميدان الأدبى على مر العصور واختلاف الحكام ، حيث كانت الوظيفة الرسمية المعترف بها لأصحاب الكلمة هى أن يكفلوا للحكام السلطان الأدبى على وجدان المحكومين . . . أى جديد إذن جعل القضية تشغل أفئتنا المعاصر فتلفنا فى دوامة عنيفة من الجدل والخصومة والخلاف ؟

جدد أن احتدام الصراع المذهبي فى السياسة المعاصرة ، نقل القضية إلى صميم المعترك ، وسلط المهجر على الأعمال الفنية ليرقب موقف الأديب من هذا الصراع .

وانقسم الأدباء والنقاد شيعاً وأحزاباً ، يعكسون فى خصومتهم صخب المعركة المذهبية .

\* \* \*

( ١ ) انظر شاعر القبيلة ، فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ويمكن القول بأن الانتصار التاريخي للحزب الشيوعي ، كان من أقوى الدوافع التي نقلت القضية من مجالها الأدبي المحكوم بقوانين الفن وموازينه ، إلى المجال المذهبي المحكوم بقوانين مادية .

وبعد أن كان الأديب هو الذي يختار موقفه : فيعبر عن ذاته فرداً ، أو يلتزم بأمانة النضال عن قومه وحماية وجودهم ، أو يبيع وجدانه وضميره لمن يدفع الثمن .

صار مطلوباً منه أن يمارس عمله الفني من خلال المذهب ، وأن يقف وراءه داعية مبشراً ، تحت رقابة صارمة تجعل من الالتزام إلزاماً .

واشدت الرقابة في عهد « ستالين » فرفضت كل فن لا يخضع لهذا الإلزام خضوعاً صريحاً مباشراً ، وتمادت في صرامتها إلى حد المصادرة لحرية الأديب في أن يجوم حول الأساطير : كيلا يتخذ منها ذريعة لستر موقفه ، كما رأيت في " الرومانتيكية " تحايلاً للهروب من الواقع .

ولكن التجربة كشفت عن خطأ هذا الإلزام وخطره ، فجاءت الأعمال الفنية محتنقة بأغلال القيود المفروضة ، وأعوزتها حرارة الإيمان وصدق التعبير وانطلاق الحركة .

وبدلاً من أن يؤدي الفن دوره الفعال في خدمة الحياة وقيادتها ، انفصل عنها وصار مجرد أداة تعليمية للدعاية المباشرة .

وبدلاً من أن يحقق غايته من السيطرة على وجدان الجماهير ، فقد سلطانه عليها .

\* \* \*

وكان رد الفعل في الأدب بعد "عصر ستالين" محاولته العنيفة لاسترداد فنيته الجمالية التي وأدها الاختناق بالمادية ، وحرية المهذرة التي سلبتها أغلال الإلزام ، وصدقته الفني الذي بددته الواقعية المزورة :

وصار شعار الفن الماركسي الجديد ، أن يكون فناً أولاً ليسترد سحره وسلطانه على وجدان الجماهير ، وينهض بمهمته في خدمة المجتمع والمذهب .

\* \* \*

## الفن للفن والفن للمجتمع

الفن لا يمكن أن يمارس عمله الجليل في الحياة  
والمجتمع ، ما لم يكن أولاً وقبل كل شيء فناً .  
والفصل بين فنية الأدب واجتماعيته ، شذوذ  
في منطق الحياة والفن ، كليهما .

obeikandi.com

هل كان هذا التحول في الفن الماركسي ، مجرد تحرر من ضغط الاختناق في عهد ستالين ، يساير التحول المذهبي في السياسة والاقتصاد ؟  
أو بتعبير أوضح : هل كان التحول الفني انعكاساً للتحول في الواقع المادى ، ومن ثم يظل الفن حيث وضعه « ماركس » صدئى للمادة وتابعاً لها ؟  
كلا . . .

بل هو فيما أرى ، تحول فرضه نضال الفن عن وجوده الأصيل ومكانه القيادى فى الحياة . بعد أن كشفت التجربة عن عمق تبعيته للمادة ، وخطر عبوديته لها !  
كما فرضه التنبه إلى ما شاب القضية من أخطاء فى فهم معنى الالتزام ، وحقيقة الواقعية وجوهر الحرية ، فى المجال الفنى :

فالفن لا يمكن أن يمارس عمله الجليل فى الحياة والمجتمع ، ما لم يكن أولاً وقبل كل شىء فنّاً . .

والفصل بين فنية الأدب واجتماعيته ، شذوذ فى منطق الحياة والفن معاً .  
والخصومة فى الالتزام ، لم تنشأ إلا عن خلط بينه وبين الإلزام .

واقعية الأدب ليست تسجيلاً للواقع وانحصاراً فيه ، وتبريراً له أو تزويراً فيه ، بل هى موقف فكرى حر للأديب من ذلك الواقع ، وانطلاق به إلى وجود أفضل وأفق أرحب .

والذين يريدون أن يجندوا الأدب لخدمة المجتمع عن طريق الإلزام ، ينسون أن مهمته القيادية فى الجماعة لا يمكن تصورهما إلا مع جبرية الالتزام ، لا الإلزام .

وأعنى بالجبرية هنا ، أنها مفروضة على الأديب تلقائياً ، من طبيعة رسالته ومسئولية ضميره .

وهو لا يتلقى هذه المسؤولية من خارج ، ولا يأمره بها أمرٌ ، من كان .  
لأن الأديب ، أو الفنان ، هو وجدان الأمة فى أصنى نقائه ، وضمير الجماعة

في أرهف حساسيته ، ولا توجد سلطة أعلى من سلطته في مركز القيادة الوجدانية ، يتلقى منها التوجيه والحفز .

ولا يخلو موقف الأديب تجاه وضع الجماعة من أحد أمرين : إما أن يؤمن بسلامة الأوضاع فيناضل عنها من تلقاء نفسه وبمحض اختياره الحر .

وإما أن ينكر هذه النظم والأوضاع ، فيكون حمله على الالتزام بها ، إكراهاً على تزييف موقفه منها ، وعندئذ لا يخون ضميره فحسب ، بل يفقد كذلك جوهر الفن من صدق المعاناة وعمق الانفعال . وبالتالي يفقد فاعليته . .

وإذا كان « أبو العلاء » يقدم لنا من وراء عشرة قرون مثلاً رائعاً لجزئية الالتزام من حيث هي مسئولية ضمير ،

فكذلك فعل رواد اليقظة وطلائع الثورات ، من « مونتسيكو وفولتير » إلى « تولستوى وجوركى . . » من قبل أن تسمع دنيانا بقضية الالتزام أو تخوض في جدلها العقيم حول الأدب الهادف وغير الهادف ، وتردد عبارات طنانة عن الفن للفن والفن للمجتمع .

وفي ضجيج العصر وصخب صراعه المذهبي والفني ، تقدم لنا مأساة « فلاديمير ماياكوفسكى » - شاعر الثورة الروسية وكاتبتها المسرحي الأول - مثلاً مثيراً لجزئية الالتزام التي تتحدى دعاة الإلزام وتبطل دعواهم ؛ لقد عاش الأديب الكبير يناضل عن مذهبه ويخوض معركته الفنية تحت شعار الواقعية الاشتراكية التي تحاصر نظرة الأديب كيلا تطل على أمسٍ مضى ، وتحدد نشاطه في خدمة الواقع الاشتراكي دون أن ينطلق عبر الحدود . .

حتى إذا بلغ أقصى الشوط ، إلى حيث حمله التيار مع من تابعوه ، لمح في ووضه ناقبة خواء الفراغ الذي تصور أن يقوم منه بناء المستقبل على غير أساس ، فاهتز إيمانه بما ناضل عنه ، حين ساوره الشك في أنه كان على حق ، إذ دعا إلى بتر ماضٍ يفرض وجوده على حاضر ومستقبل .

وتخلص بالمولت من محنته ، وقيل إنه انتحر لينجو من مطاردة نقاده !

وما كان له من مطارد غير ضميره الذى ثقلت عليه وطأة الشك فيما التزم به ،  
فسلبته راحة اليقين وطمأنينة الإيمان !

وتأهت عبرة مأساته فى صخب الصراع المذهبي ، فكان عام ١٩٣٠ -  
الذى انتحر فيه ماياكوفسكى - هو بدء مرحلة التحول فى الأدب الروسى من  
الالتزام إلى الإلزام ، إذ مضى « ستالين » على غلوائه فوضع الفن تحت رقابة  
صارمة تقيده بأغلال خنقت حيويته وعطلت فعاليته ، وألزمته موقفه فى خدمة  
المذهب وتأييد الواقع بالأسلوب التعليمى الصريح المباشر الذى يجافى طبيعة الفن ،  
وحرمته تلقائية الالتزام التى لا تكون إلا عن عقيدة صادقة وضمير حر . . .



## حرية الأديب

الحرية تقيض الإلزام  
ولكنها ، كذلك ، قيود باهظة وأمانة صعبة ،  
تفرضها قوانين الفن ويخضع لها الأديب الحر  
دون أن تجبره عليها سلطة آمرة !

obeikandi.com

## والإلزام نقيض الحرية

وعصرنا الذى يهيم بالحرية ويعدها حقاً شرعياً للفرد والجماعة ، ينيط بالفن عبء الدفاع عن هذا الحق ، وقيادة الجماهير والشعوب وجدانياً إذ تخوض معاركها الباسلة من أجل التحرر .

فكيف يُتصور أن نعطل حرية الفن ونقيده بأغلال الإلزام ، ثم نرجوه لمثل هذه الأمانة الصعبة ؟

واختلاف النظرة إلى الحرية باختلاف البيئات والعصور ، أمر طبيعى لا غرابة فيه . ولكن يبقى هناك دائماً أن الإنسان تطلع إلى الحرية منذ كان ، وقد مرت عليه عصور رزح فيها تحت كابوس الرق ، لكنه لم يكف قط عن التمرد على الأغلال .

فهل كان فى تمرده إنما يلتمس النجاة من براثن الاستغلال الطبقي أو الإقطاعي أو الرأسمالى ، ويتجه فى مسعاه إلى الحرية بتأثير الدوافع المادية فحسب ؟ هكذا تقول النظرية الماركسية فى التفسير المادى للتاريخ .

لكنها لا تعطينا تفسيراً مقنعاً ، لمن يدافع عن حرته بدمه ، ويدفع حياته ثمناً لها !

ومليون شهيد فى معركة الجزائر وحدها ، رفضوا الحياة مع رق الاستعمار ، يكتفى لأن يعطى قيمة جديدة للحرية فى عصرنا ، بحيث لا تعود مجرد صراع حول المادة أو تنازع على البقاء المادى ، إنما هى عنصر جوهرى فى إنسانية الإنسان ، لا تقوم حياته بدونها .

وأقول إنسانية الإنسان ، فأذكر على الفور أن " نظرية دارون " تقف بهذا الإنسان عند نهاية شوط طويل على مدرجة تطورٍ استغرق ملايين السنين ليرقى من طور الحيوانية ، وأرى المادية تهبط بالإنسان عن الحيوان الذى يضيق بقيود الأسر ، ويتململ فى أقفاصه وسجونته بمخاض الحيوان ، حيث الطعام وافر والحاجات المادية مقضية ميسرة . . .

ومفهوم الحرية في الأدب والفن ، لا ينفصل عن مفهوم الحرية العامة التي يدين بها إنسان العصر .

إن الحرية لا تعني الإباحة والفوضى والتحلل ، بل هي في صميمها أمانة صعبة ومسئولية باهظة وقيود صارمة .

وأخطر ما يتعرض له الحرية - في أى مجال لها - هو الجهل بتبعاتها ومسئوليتها ، واختلاط مفهومها بشوائب ضالة من الفوضى والتحلل والإفلات .

فالأصل في الحرية على غير ما يتصور بعضنا ، أن تكون قيداً والتزاماً . وجوهر الفرق بينها وبين العبودية أن قيود الحر مفروضة عليه من تلقاء نفسه ، يلتزم بها عن طواعية واختيار ، أما قيود العبودية فيفرضها الغير قسراً ، على وجه القهر والإلزام .

وحرية الكلمة أرق أنواع الحريات لأنها أداة التعبير الحر ، ومظهر الاحترام لكرامة الإنسان في أخص ما يميزه عن الحيوان الأعجم .

وحين تُمارَس حرية الكلمة في المجال العام تزيد مسئوليتها خطراً ، بحكم خروجها من نطاق الحرية الفردية لشخص الأديب وحده ، لا يتجاوزها إلى سواه ، إلى النطاق الجماعي للأمة .

وهذا التقدير لحرية الأديب ، يتجه كذلك إلى حرية الناقد الأدبي ، حين يحتمل ، بمقتضى حقه في حرية الكلمة ، تبعاً للمشاركة في التوجيه الفكري للأمة والتأثير على وجدانها العام ، وعلى وجودها المعنوي الذي هو مناط سلامتها وحياتها .

ولا يتصلدى لهذه التبعية إلا القادر على إحمال قيودها الباهظة المقدر بلحلال تبعاتها الصارمة ، وأبسط تفريط في هذه التبعات أو تهاون بتلك القيود ، يضع الأديب والناقد دون مستوى الحرية للكلمة المسئولة قائدة وناقدة . .

لكنها قيود تفرضها قوانين الفن ، ويلتزم بها الأديب الحر دون أن تجبره عليها سلطة آمرة !

فن الجانب الفني ، لا تعنى الحرية إباحة المجال الأدبي لكل من هب ودب ،

أو الفرار ، باسم الحرية ، من جهد البناء الفنى وعناء المكابدة الخالقة ، والتحلل من القوانين والضوابط الفنية الجمالية ، فثقل هذا التحلل إلى جانب عدوانه على الحرية ، يعطل مهمة الأدب الكبرى فى التأثير على وجدان الجماعة ، وينزع منه زمام القيادة المعنوية التى تعتمد عليها الأمة فى حماية وجودها وحراسة مثلها .

ومن الجانب الموضوعى ، لا يجوز أن ننسى أن حرية الأديب هى حرية فرد فى مجتمع وليست حرية فرد فى الخلاء . . .

وكما أن ممارسة الأديب لحرية كاملة ، لا تنفى بحال ما التزامه بقوانين الفن ، فإنها لا تنفى كذلك مسؤوليته عن سلامة المجتمع الذى ألقى إليه زمام القيادة الوجدانية .

ويقال هنا ، إن الأديب بشر غير معصوم ؛ يجوز عليه ما يجوز على البشرية من خطأ وزيف وضلال ، فهو قد يخون الأمانة ويبيع ضميره ، كما قد يسىء استغلال قلمه لمنفعة شخصية على حساب أمته .

وهذا حق . . .

لكن يقال معه إن الأديب إذا خان قومه ، تسقط عنه صفته الإنسانية ، لا الأدبية فحسب ، لأن ارتباطه بالجماعة هو مقياس إنسانيته ، إذ هو ليس إنساناً إلا بقدر ما هو مدنى ، مرتبط بالجماعة غير منفصل عنها .

ويقال معه أيضاً ، إن هذه الحيانة يقع إصرها على صاحبها فرداً ، دون أن يمس ذلك شرف الحرية وكرامة الأدب ، كما أن خيانة جندى يبيع سيفه لأعداء وطنه ، تهدر حقه فى الحياة ، دون أن تمس شرف الجندي أو تصمها بالعار !

خلاصة الموقف أن للحرية فى الأدب حرمتها وقداستها ، بحيث يُعد أى عدوان عليها عدواناً على الإنسانية . لكن بشرط أن يتحرر مفهوم الحرية فلا يختلط بالتحلل والابتذال ، ولا يلتبس بالإباحية الضالة والفوضى العشواء !

• • •

والنظر فى الأدب الثورى ، كفيلى بأن يجعلو مفهوم الالتزام على حقيقته : مسؤولية ضمير وأمانة كلمة وتبعية حرية . . .

وهذه قضية تستحق أن نفردها بحديث خاص ، يفحص فيها بعض حقاها من العناية والدرس .

obeikandi.com

## ثورية الأدب والالتزام

يأخذ الأدب مكانه أمام كل الثورات طليعة  
قائدة رائدة ، تحلوا الركب السارى وترهص  
بالفجر المحجب بالظلمات ، عن التزام باسل حر .  
لكنه إذ يتخلص بعد انتصار الثورة من ضغط  
التحدى ، قد يستمرى نشوة الارتياح ، فيتقهقر  
عن مكانه فى الطليعة ليأخذ مكاناً وراء  
الأحداث ، وعندئذ تشيع فيه ظاهرتا المتابعة  
والاجترار ، ويحدث لبسٌ خطير بالخلط  
بين مهمة الأدب ووظيفة الإعلام :

أجهزة الإعلام مهمتها دعمُ الواقع ، ومجال  
اختصاصها محدود بمرحلة حاضرة تقف وراء  
أحداثها لتتولى الإعلام بها والدعاية لها .  
أما الأدب فإن مهمته الأصيلة الانطلاقُ  
بهذا الواقع ، ومنه ، إلى غد أفضل ، ومجال  
عمله ممتد إلى ما بعد الواقع ، أى مرحلة المستقبل .

obeikandi.com

موضوع « الأدب والثورة » رجب وخصب ، لا يمكن أن تفي به محاضرة أو محاضرات محدودة السعة والمجال، وإنما الذى يعيننا منه هنا، هو ما يتصل بقضية الالتزام .

فكثير منا يتصورون أن الأدب يبدأ منطلقه الثورى بعد أن تم الثورة وتنتصر، ومن ثم يطوون كتاب الأدب قبلها ، ليبدأوا بها صفحة جديدة تتابع الدفع الثورى .

وما أريد أن أقرره هنا ، هو أن كل الثورات الشعبية ، مرت حتماً بمرحلة تعبئة وجدانية وغلbian فكرى ، تولى قيادتها جنودُ القلم والكلمة مستبسلين، عن التزام لم يفرضه عليهم أحد ، بل كان المفروض إلزامهم بتأييد الأوضاع التى رفضوها . . .

وتاريخ الثورات جميعاً ، بغير استثناء ، يبدأ بما نسميه مرحلة الإرهاص الثورى فى الفكر والأدب ، وهى تساير مرحلة التحفز والتجمع فى التاريخ القومى ، وتتفاعل معها تأثيراً وتأثراً .

والالتزام هو الذى يمنح أدب هذه المرحلة ، من حيوية الانفعال وحرارة الإيمان وصدق المعاناة ، ما نخطفُ مثله فى أدبٍ يبدأ ثورته بعد انتصار الثورة ! ويصدق على الأدب هنا ، ما يصدق على تاريخ النهضات ، حيث تتألق حيوية الشعب تحت وطأة " التحدى " الذى يعده مؤرخ مثل «أرنولد توينبى» القوة الدافعة للبعث ، ومن ثم يأخذ أدب الإرهاص الثورى، الصادر عن عقيدة وإيمان ، مكانه فى الركب السارى ، حادياً وقائداً ومبشراً . .

على حين يتخلص أدب ما بعد الثورة من ضغط التحدى ، ويشعر بالرضى والارتياح ، فتيقهقر عن مكانه أمام الأحداث ، قانعاً بموقفه من ورأها ، مؤيداً ومتابعا ومناصرأ . .

\* \* \*

ولنلق نظرة سريعة على أدبنا وثورة يوليو ١٩٥٢ من حيث هى نموذج ومثال ،

يمكن أن يتكرر بصورة أو بأخرى في كل ثورات التحرير التي خاضتها أمتنا على امتداد الوطن الكبير ، من وادي الرافدين إلى قم الأطلس وسفوح أوراس .  
لعلها تجلو فهمنا لثورية الأدب ، وتحدد القيمة الجوهرية لكل عمل أدبي يحمل شعار الثورة : التزاماً ومجاهدة ، أو متابعة واجتراراً ! .

\* \* \*

على مدى سبعين عاماً وأكثر ، لم تنم مصر ليلة غير مؤرقة بالاستعمار الجاثم على حماها ، والأوضاع اللثيمة الماسخة للحياة فيها .

وعلى مدى الأعوام السبعين ، لم تفر حركة التمرد ولم يخرس دعاء الفجر يطلقه في ظلمة الليل الداجي مفكرون وأدباء ، سهروا على حراسة ضمير الأمة ووجدان الشعب ، كيلا يخدع بأباطيل المضللين وأقنعة المزيفين .

وشهد تاريخنا ، أن تلك المرحلة هي التي أزهقت بالثورة، وعبرت عن السخط ونفذت إلى أعماق الأمة فوعت نبضها الحي . وقد كان كل ما يسيطر على وجدانها ويستأثر بطاقتها الانفعالية هو الخلاص من محتتها بالاستعمار المهين والفساد الذي ضرى واستشرى .

وذلك ما نهض به أدب الإرهاص الثوري ؛ في قصائد وأناشيد وعاما ديوان شعره السياسي والقوى .

وفي أمثال وحكايات شعبية ، سجلت نبض وجدان الأمة في تمردا على البغي والفساد ، ورفضها لمنطق العبيد .

وفي قصص وتراجم تاريخية ، غذت وعينا وإبائنا بأجداد ماضينا العريق وبطولات أجدادنا الكرام .

وفي تمثيلات وقصص، روت قبل الثورة مأساة الإقطاع وهو في ذروة سطوته ، وتحدثت الأوضاع الفاسدة والليل داج مدلم<sup>(١)</sup> . . .

\* \* \*

ثم ، لما آن الأوان وتحققت الثورة ، حدث تحول خطير في موقف الأدب :

(١) عالجت هذا الموضوع بتفصيل أوفى ، في بحث نشرته جامعة عين شمس في كتاب « أضواء على

ترك مكانه القيادي طليعة رائدة كاشفة لمعالم الطريق الثوري، وتقهر إلى مكان خلف الأحداث يسجل ويتابع ويجتر .

وكان على الأدب أن يسبق . . .

كان عليه أن يطمح ببصره إلى ما وراء الأفق ، ليلمح الأبعاد المترامية للتحول الجديد . . .

لكنه آثر موقف الانتظار ، ثم المتابعة . . .

بدأ فأطلق أغانيه وقصائده بعد الحدث الكبير ، معلناً عن انفعال الفرح بالثورة . ثم تمهل يكرر نفسه ويجتر زاد أمسه ، في انتظار إجراء ثوري جديد يؤيده ويهتف له . . .

واختلط الأمر على أكثر الأدباء ، فلم يدركوا أن لهم مهمة أخرى ، غير المهمة التي لأجهزة الإعلام .

ألغت الثورة الأحزاب ، وأسقطت الألقاب وحسنت بقايا الملكية بإعلان الجمهورية ، وقضت على الإقطاع والاحتلال .

والأدب من ورائها : يلعن مهزلة الحزبية المملغة ، ويسخر بالألقاب المنبوذة ه ويرجم بالأحجار الاحتلال الساقط والإقطاع المنهار !

وهو بهذا قد أدى وظيفة إعلام ، أو لعله أدى ظاهر رسالة الأدب وتخلي عن جوهرها الأصيل : عبّر عن وقع الأحداث ، لكنه لم يعبر عن طموح الأمة ، ولم يأخذ مكانه في قيادتها الوجدانية وهي تعبر جسر التحول ، وتحتاج إلى طليعة من أدبائها ومفكريها ، تكشف لها عن خفي أمانيتها وآفاق تطلعتها ونخاطر طريقها .

• • •

وشاعت ظاهرة الاجترار . . .

فعلى إثر كل إجراء ثوري ، كان الأدب القومي - في جملته - يتفنن في اجترار ذكريات الوضع الفاسد الذي حسمه ذلك الإجراء<sup>(١)</sup> .

(١) سنعود إلى بيان هذا ، في آخر الحوار التالي .

وما من شك في أن أى ثورة شعبية ، تحتاج إلى تأييد ومؤازرة من الرأى العام ، لكي تنمى في طريقها إلى الحياة الجديدة . والأدباء مواطنون يملكون وسيلة فعالة لهذا التأييد ، لكن على ألا تخلط هنا بين المهمة الأصيلة للأدب ، وبين وظيفة أجهزة الإعلام .

فهذه الأجهزة مهمتها الأولى دعمُ الواقع وتأييده ، ومن ثم فإن مجال اختصاصها عندئذٍ بمرحلة حاضرة ، تقف وراء أحداثها لتتولى الإعلام بها والدعاية لها ، وتعي كل طاقاتها ، بشرية وآلية ، نشر كل إجراء ثورى وبيان الضرورات التى دعت إليه والنتائج المتوقعة له ، كى يكون الرأى الشعبى العام على بينة من الأمر ، فيؤدى دوره فى نجاح الإجراءات الجديدة والخطط الثورية ، عن اقتناع بجدارها .

أما الأدب ، فإن مهمته الأصيلة هى الانطلاق بهذا الواقع ، ومنه ، إلى غد أفضل . وبمجال عمل الأدباء ، ممتد إلى ما بعد الواقع ، أى مرحلة المستقبل : يستشرفون له ويتوارون التعبئة الوجدانية لتستبين الأمة خفى طموحها وتشق طريقها الصعب إلى بعيد مراميتها وتتقى مخاطره .

• • •

وقلما يحدث التباس فى موقف الأدب قبل ثورة من الثورات ، لأن الطليعة الرائدة من الأدباء ، تدرك بحسها المرهف هموم الواقع وأمراضه وبؤسه ، وترنو بصيرتها الملهممة إلى نور فجر جديد تحجبه ظلمات الليل ؛ فتحوض معركة الغد عن التزام باسل .

وإنما يحدث الالتباس عادة بعد الثورة ، فالأدباء لا يعدون أن يكونوا أفراداً من شعب خاض معركته وانتصر ؛ وفى فرحة النصر يشبه الأمر عليهم فيحسبون أن دورهم فى الحياة الجديدة أن يشدوا بأغاني الفرح وأناشيد الانتصار ، مستجيبين فى ذلك لما يهز وجدانهم ووجدان الجماهير من مواطنيهم ، من نشوة الرضى والارتياح .

ولو كانت الثورة مجرد حدث طارىء غير متوقع ، لصح الاكتفاء بهذا الموقف المعبر عن وقع الحدث على الوجدان .

لكن الثورة بمفهومها الرحب الذي لا يلتبس بالانقلاب ، ليست إلا نقطة بداية لطريق طويل صعب . وأعباء الحرية أثقل وأبهظ من أعباء الجهاد في سبيل نيلها ، لأننا في معارك التحرير ، نواجه عدوًّا نعرفه ، ونسعى نحو هدف محدد واضح ومتميز . أما بعد النصر فالواقعة كلها بيننا ، وعلى أرضنا .. والأهداف تبعد وتترامى إلى غير مدى ، كلما سرنا خطوة على طريق الحياة الجديدة التي أردناها .

### ومن هنا ، كان دور الأدب صعباً :

وموضع الصعوبة فيه يأتي من حيث لا نتوقع ، فتخلُّصُ الأدب من أزمة التحدي — التي ضغطته قبل الثورة — يُشعره بالارتياح ، فيطيب له أن يعيش واقعه ويستمرى لذة الهدوء بعد شوط مجهد ظافر ، ويقوته مكانته في المقدمة دليل ركب تلوح له آفاق رحبة الأبعاد . .

والجماهير يخطئها أحياناً أن تستبين ما في أعماقها من خفي الأسرار ومبهم الأحلام ومجهول الآمال . يحدث هذا في عصور المحنة تحت ضغط واقعه الشقي ، أو بتأثير عملية التخدير التي تتسلط على وعي الجماهير بزائف التضليل وتنسج على بصيرتها حجاباً من الأوهام ؛ فتكون رسالة الأدب الصادق الملتزم الحر ، أن يمزق عن وعيها غشاوة الوهم وأن يكشف عن بصيرتها غطاء الزيف ، ليحدوها في تيه مسراها بدعاء الفجر .

ولكنها في نشوة الفرح بتحقيق بعض أمانها الكبار . قد تعرض كذلك لما يشبه التخدير الحائل دون رؤية ما في أعماقها من خفي الأسرار ورؤى الطموح ، ووعي ما تتورط فيه من مزالق وعثرات ، ولبح ما يترصد لها من مخاطر وفخاخ . . . حيث يُخشى عليها أن تطيل استمراء الظفر بما نالت ؛ فتلهو عما لا يزال بعيد المنال . ويكون على الأدب حينئذ أن يسهر على يقظة وعيها ويمد أفق تطلعها ، وأن يضع لها علامات الخطر على مظان التعثر .

obeikandi.com

## حوار حول الثورة والأدب

الحوار هنا مع الزميل « الدكتور لويس عوض »  
في مقال له عن ” الثورة والثقافة “ نشره في  
صفحة الأدب بأهرام الجمعة يوم ٦٥/٧/٢٣  
لمناسبة العيد الرابع عشر لثورتنا .

وأهمية هذا المقال ، ترجع إلى كونه ممثلاً  
لوجهة نظر الذين يقولون إن الأدب ، والفن  
بوجه عام ، يبدأ منطلقه الثوري من شهر يوليو  
١٩٥٢ ، وكان قبل ذلك قد هبط إلى هوة  
سحيقة من الفراغ والجدب .

والموضوع خاص بالأدب والثورة في مصر ،  
لكنه لا يبدو أن يكون — كما قلت في ثورية  
الأدب والالتزام — نموذجاً ومثالاً يمكن أن  
يتكرر بصورة أو بأخرى ، في أدب أى ثورة  
عربية معاصرة .

obeikandi.com

## وجهة نظر أخرى :

كان من حق الزميل الدكتور لويس عوض ، أن أنقل هنا النص الكامل لمقاله عن " الثورة والثقافة " لكي أوفر له عناصر ترابطه وسياق آرائه وأفكاره ، حين التصدي لمناقشته .

أما المجال لا يسمح بهذا ، فإني أرجو أن يرجع إلى المقال ، كل من يعنيه تتبع هذا الحوار ، وسوف أحرص ما وسعني الجهد ، على أن أجلو سياق الفقرات التي أنقلها من مقاله ، مميزةً بأقواس ، للمناقشة .

وواضح من تقديمي لهذا الحوار ، أن لي في " الثورة والأدب والثقافة " وجهة نظر تختلف تماماً عن وجهة نظر الزميل . ولا بأس على أحدنا أو كليتنا من ذلك الخلاف ، فنحن وإن كنا ننتمي إلى جيل واحد ، وقد تقاربت خطواتنا زماناً ومكاناً في المرحلة الجامعية بكلية الآداب ، ثم جمعتنا زمالة العمل في الملحق الأدبي للأهرام ، يأتي اختلاف وجهات نظرنا أثراً طبيعياً محتوماً ، لتفاوت ما تلقته شخصية كل منا من ميراث بيئته ومؤثراتها .

\* \* \*

وأساس الخلاف الجوهري بيننا ، أن الزميل يقول « بفراغ رهيب التهم حياتنا الأدبية والفنية في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها من سنوات حتى قيام الثورة .. » وهذا الفراغ من الناحية التاريخية يمثل الهوة التي سقط فيها الأدب العربي في مصر بين ازدهارين كبيرين : القديم الذي صاحب ثورة ١٩١٩ ولازم مدها الثوري حتى غاض ذلك المد بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ، والحديد الذي جاء بمجيء الثورة ولم يكن قد وُلد بعد . كان هناك في الفترة بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٥٢ قديم لا يريد أن يموت ، وجديد لا يستطيع أن يولد .

ولست معه في القول بإمكان وجود ازدهار — أدبي أو غير أدبي — بنشأة فراغ وجدب . فما من ازدهار عرفه التاريخ ، لم تسبقه طلائع مرهضة به جهاد له مستشرقة إليه . والمرحلة التي بدت لبعضنا مرحلة فراغ رهيب ، كانت في الأصل

من أخصب المراحل في تاريخنا الحديث ، تعبئةً ثورية . والأدب فيها لم يشذ عن طبيعة المرحلة التي شهد « الميثاق » بأنها كانت — على ما يبدو من جمودها ويُظن من خمولها — من أخصب مراحل وجودنا القوي حيوية وتحفزاً . .

وما يصدق على الوجود القوي للأمة ، في مرحلة بعينها من مراحل تاريخها ، يصدق على وجودها الفكري والأدبي ، وإلا لما صحت دعوى ” صلة الفن بالحياة “ التي يعتز الزميل الدكتور لويس بأنها كانت « الشعار الذي رفته صفحة الأدب في جريدة الجمهورية ، عندما أسندت إليه مسئولية الإشراف على تحريرها عام ١٩٥٣ » .

ورفعته قبل ذلك بانفي عشر عاماً « مدرسة الأمان » ، ومن أعضائها المؤسسين عدد غير قليل من كتاب مرحلة الازدهار الكبير .

فالقول بأن مرحلة ما قبل الثورة ، كانت حقبة جذب وفراغ ، مع ما يشهد به الواقع التاريخي من كونها مرحلة التحفز الثوري سياسياً وقومياً ، ينسخ كل كلمة تقال عن صلة الفن بالحياة ، لأنه يعنى أن الأمة كانت تتحفز لثورتها ، وفكرها معطل ووجدانها أصم عميق !

وإذ يبدو للزميل أن أدبنا انطلق مع الثورة وبها إلى مرحلة ازدهار كبير ، عن فراغ رهيب غاض فيه النبع إلا من قطرات جاد بها الأستاذ توفيق الحكيم على أرض خراب ليس فيها غير « بذور خفية ألقاها الدكتور لويس والدكتور مندور والأستاذ نجيب محفوظ ، فلم تر النور قط إلا بعد أن تمت الثورة وجادت عليها بالرى والهواء . . وأنقذتها من موت محقق » .

يبدو لي مما يشبه المستحيل ، أن تم مرحلة التحفز الثوري في ضمير الأمة ، بمعزل عن الفكر والفن !

ولا علم لي بثورة عرفها التاريخ في مساره الطويل ، لم تسبقها طليعة فكرية وأدبية، تكفلت بتعبئة القوى المذخورة والطاقات الكامنة . وليست ثورتنا بدعماً في الثورات التاريخية ؛ فيقال إنها جاءت على فراغ فكري وعمق وجداني . وليست أمتنا بدعماً في الأمم العريقة ، ليقال إنها حققت وجودها الثوري سياسياً ، دون أن

تمر بمرحلة الثورة الفكرية والتعبئة الوجدانية التي يقرر التاريخ أنها طليعة كل ثورة .

\* \* \*

وفي حساب الزميل — ومن يرون رأيه — أن رواد الفكر الثوري عندنا ، هم الذين أتاحت لهم ثقافتهم الغربية أن يتصلوا بالثورات الأوروبية الحديثة وينقلوا إلينا أصداءها . وواضح أنه في هذا الموقف ، يُطل على أفقنا من زاويته الخاصة ، فلا يجذبنا من رصيدنا الفكري والأدبي لمرحلة ما قبل الثورة ، إلا ما اتصل بالفكر الغربي الجديد ونقل بذوره الثورية إلى أرضنا .

ولعل لي حقاً في أن أطل على الميدان ، من الموقف الذي شاعت لي ظروفي أن أقف فيه ، منذ اتصلت بالحياة العامة في مستهل ” مرحلة الفراغ بين ازدهارين كبيرين “ .

وهو نفس الموقف الذي لم يتح سواه ، لجمهرة من أبناء الشعب وقمت ثقافتهم عن الثورات المعاصرة ، عند الذي قرأوه في الكتب المدرسية عن الثورة الفرنسية ، والذي سمعوه ووعوه عن ثورة عرابي وثورة ١٩١٩ .

ذلك لأن بيئتنا الثقافية المنعزلة عن تيارات الفكر الغربي ، لم تزودنا بكلمة ما عن النظم الاشتراكية أو المذهب الشيوعي أو الثورة البولشفية . فأمضينا مرحلة التلقي والتكوين والتأثر ، في الريف والأقاليم . لا ندرى شيئاً عما يكتبه دعاة التطور وأنصار التقدم ومحرر « المجلة الجديدة » الذين أشار إليهم الدكتور في مقاله .

وكذلك عزلتنا الثقافة المدرسية ، عن تلك البضاعة الفكرية التي كانت محرمة في شرعة السياسة الحاكمة .

ومع ذلك لم نكن في حاجة قط إلى من يرهف حسنا بمأساة الشعب ونحن من صميمه . وقد تكفلت بيئتنا القومية وثقافتنا الإسلامية ، بتلقيننا حقوق الإنسان وإقناعنا بكرامة البشر .

وبهذا الحس المرهف ، نرحنا من الأقاليم إلى العاصمة لتصدنا الأوضاع اللئيمة وتجسم لنا بشاعة الفروق الطبقيّة وضراوة الإقطاع ومهانة الاستبداد والاستعباد . وفي الوقت الذي كان فيه الزملاء الثلاثة محمد مندور ونجيب محفوظ ولويس عوض « يقبلون التربة انتظاراً لشيء يحدث فيأتي بالرى والهواء » كان هناك آخرون

من لم يطبقوا مثل هذا الانتظار ولا احتملوا التشاغل بتقليب التربة ، بل اندفعوا يكتبون عن المأساة التي تؤرق ضمائرهم وتشغل بالهم في اليقظة والمنام .

كان « الأستاذ توفيق الحكيم » يوقظ النيام من « أهل الكهف » ويسجل يومياته في الأرياف ، ويرهص بعودة الروح ، وكان « الأستاذ الدكتور طه حسين » يرهص بثورة الثقافة بمجديته عن نظرية تكافؤ القرص وحق المواطنين في التعليم كحقهم في الماء والهواء ، وينشر حديث شجرة البؤس وجنة الحيوان والمعذبين في الأرض .

وكان أستاذنا « أمين الخولي » يعي عقولنا وضمائرنا بشحنة ثورية ، تسرى منه إلينا متوهجة متأججة فنحمل بها عار وجودنا المهين وخطيئة الاستعمار . وكانت محاضراته ومجالسه ، تعبئة عقلية ونفسية ، فيما يصحح من مناهج تفكيرنا ، ويستحدث من « فن القول » ويجلو من ملامح الشخصية المصرية « في الأدب المصري » ويذيع فينا « من هدى القرآن : في الطغيان ، وفي أموالهم ، والقادة الرسل » ويخوض معركته الباسلة في الجامعة لتمصير كلية الآداب . .

وكان سندبادنا المصري « الدكتور حسين فوزي » يرتاد لنا آفاقاً فنية مجهولة عن « المزيكة » ويحمل لواء الدعوة إلى الثقافة الموسيقية رائداً مناضلاً . .

وكان شاعر الشعب « بيرم التونسي » ملء الميدان ، يغزو الوجدان الشعبي بأزجاله وهوويله وأغانيه . .

وكان مسرحا الريحاني ورمسيس ، يعرضان علينا المضحك والمبكي من مهازل الأوضاع ومآسى الطبقة .

وكان خالد محمد خالد يبدأ نضال قلمه الثائر بكتابه « من هنا نبدأ » ويوسف السباعي يكتب « أرض النفاق ، والسقامات » بثورية لا مثيل لها فيما كتب بعد الثورة ، وكان عبد الحلیم عبد الله يدخل الميدان بقصتيه « لقيطة » وبعد الغروب « اللتين كرهما بصورة أو بأخرى في « مرحلة الازدهار الكبير » وكان أحمد علي باكثير يقدم أروع مسرحياته الإسلامية ، وعبد الرحمن الشراوي يعيش بكل وجدانه في قصة « الأرض » الطيبة الراضحة تحت كابوس الوحش الإقطاعي ، وعبد الحميد الديب يروعنا بأقسى مشاهد البؤس والحمران ، وأحمد محرم يضحج

بالإشارة على الفساد السياسى ، واستعيد ذكرها فى بطولاتنا الإسلامية ليؤجج بها الحماسة ، وكان عبد الحلیم يعلن بثورة جديدة ثم "إصرار" .  
وكان . . وكان . .

وأعتر بما كان فى من شرف الانضمام إلى ذلك الركب الثائر ، فأشهد أن المرحلة التى وُصِفَتْ بأنها "الحرب" ، كانت من أخصب مراحل حياتى لأدبية ، فقياً بين بدء المرحلة ١٩٣٥ ونهايتها سنة ١٩٥٢ . نشر فى لأهراء لى المئات عن مأساة الفلاحين وظهير كتابى الأول : فى "سرف المصرى" عام ١٩٣٠ ، ثم كتابى « قضية » عام ١٩٣٩ . وبعدهم مأساة الاقطاع "جمعة" « سيد العزبة » التى نشرها فى المعارف سنة ١٩٤٤ ثم سرت سنة ٩٤٩ سعى « رجعة فرعون » التى ترفض الحياة بمصر فى أوضاعها قبل ثورة .

\*\*\*

ويقول الدكتور لويس ، تأييداً لدعوى الأرض الخراب قبل الثورة من العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ، أنهم أرسلتهم الأدبية قبل عام ٩٣٦ . فلم تظهر لهم بعد ذلك إلا مؤلفات انفصلوا فيها عن واقع حياتنا ، وعادوا إلى التاريخ الإسلامى .

والذى أعلمه علم اليقين ، أن عودة هؤلاء الكتاب إلى التاريخ الإسلامى ، كانت اتصالاً بواقع حياتنا ، لا انفصالاً عنه ! وهم لم يتفقدوا إلى وجدان الجماهير بما كتبوا قبل عام ١٩٣٦ من مطالعات ومراجعات ووحى الأربعين ، ومن جاهليات ويونانيات وفرنسيات . وإنما أخذوا مكانتهم الأدبية لدى الجماهير بما قرأت لهم بعد ذلك ، فى مرحلة الفراغ والعدم ، من عبقریات العقاد الإسلامية ، و"على هامش السيرة والفتنة الكبرى" لطفه حسين ، و"حياة محمد وأبى بكر الصديق والفاروق عمر وفى منزل الوحي" لهيكل . . .

وقد سجلوا بهذا الاتجاه ظاهرة تحول مشتركة ، يلمح فيها المؤرخ الأدبى للمرحلة ، أثر استجابة هؤلاء الكتاب لحساسية الشعب المرهفة وجدانه المتدين ، وإن لم ير فيها بعض العصريين سوى رجعية كافرة بالتطور وتقليباً لأكفان الموتى

لم تكن المرحلة إذن فراغاً مجدياً، ولا يصح في المنطق والواقع أن تكون، وهي التي بدأت بمظاهرات الطلبة ضد معاهدة ١٩٣٦ وامتدت إلى حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ إيذاناً بانفجار البركان .

وهذه الحقيقة فرضت نفسها على الزميل من حيث لا يدري ، فشهد في مقاله بأن « هذه الحقبة رغم فراغها الواضح كانت في الوقت نفسه فترة التحضير العظيم » .

دون أن يفسر لنا كيف يمكن أن تكون هكذا ، مع ما قرره من أن التربة المعتمة خلت إلا من « بذور خفية ألقاها هو ومحمد مندور ونجيب محفوظ ، ولولا هذه البذور لما كان أدب الثورة ، ولولا الثورة التي جاءت بالرى والهواء وضوء الشمس . بل بالسهاد أيضاً ، لاختلفت في بطن التربة المعتمة ولم تر النور أبداً ، ولأجهضت كالجنين إذا تعسرت ولادته » .

والحق أنني لا أفهم كيف تم التحضير العظيم لأدب الثورة ، ببذورٍ لم تر النور إلا بعد الثورة ، ولولاها لأجهضت كالجنين إذا تعسرت ولادته !

إن التحضير العظيم لا يكون أبداً إلا بالغلجان الفكرى واليقظة الوجدانية . والتاريخ يلتمس أدب الثورة قبل الثورة ، باحثاً عن الينابيع السخية التي أرهفت وعى الشعب ، والمشاعل التي أضاعت مسراه في ظلمة الليل !

## ينبوع الوعي الشعبي ورافده :

من أين أتيج لهذا الشعب الأُمى أن يستمد زاد وعيه ونور بصيرته في مرحلة الغضب والتحفز ؟

إن هذا الشعب كان بمنأى عن أى اتصال فكري بالحركات الثورية وبمعزل عن دعوات التقدميين ومقالات التطوريين ؛ ممن يحسبهم بعضنا - خطأ - قادة الفكر الثورى .

وأقول الشعب ، وأنا أعنى ملايين الأُميين الذين تجاوزت نسبتهم قبل الثورة سبعين في المائة من مجموع عدد السكان . والنسبة لا تعطى دلالتها الصحيحة إلا إذا ذكرنا أن الثلاثين في المائة - التى تمثل نسبة المتعلمين - يدخل فيها كلُّ الدخلاء والمستوطنين ، وذكرنا معه أن جمهرة المتعلمين من أبناء البلد الأصلاء ، لم يتج لهم إلا التعليم الأوى الذى كان مسموحاً به وحده للفقراء . وهؤلاء بطبيعة الحال ، تقصر وسائلهم عن متابعة الفكر الثورى المعاصر ، وبخاصة إذا قدرنا أن ما يترجم منه كان يخضع لرقابة صارمة لا تسمح بإفلات كلمة مما وراء السور الحديدى !

مثقفو العاصمة والمدن الكبرى ، هم وحدهم الذين كانت تتاح لهم فرصة الالتقاء بدعاة المذاهب الجديدة ، ووسيلةُ الاتصال بتيارات الفكر المعاصر والأدب الحديث بلمسة من إصبع تدير مؤشر المذيع فينتقل بهم عبر الأثير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، خفيةً عن أعين الرقباء الساهرين على منع البضاعة المحرمة ! على حين كانت الغالبية من أبناء الشعب ، تعيش في القرى والكفور والنجوع ، بمعزل عن هذا كله . والذين كانوا يسكنون في المدن منهم ، لم تكن بيوت أكثرهم تضاء بالكهرباء ، و"عصر الترازستور" لم يكن قد بدأ عندنا بعد .

هل نتصور إذن ، أن هذا الشعب تمثّل في النفر القليل من مثقفي العاصمة والمدن الكبرى ؟

أو نقول إن الوعي الشعبي ، قد أغنى عنه في مرحلة التحفز واستجماع القوى ،

وعى « المتصلين بالتيار التقدمي الذي تجتمع حول مجلة التطور والمجلة الجديدة ، قبل أن يبطش بهما القديم » كما ذكر الدكتور لويس في مقاله ؟  
أؤكد للزميل ، أن الملايين من أبناء الشعب ، لم يشعروا قط بهذا التيار ولا كان لديهم أدنى فكرة عن صراعه مع الفكر الرجعي .

وسبق القول بأن أحداً منا ، لم يدر شيئاً عن البذور الخفية التي ألقاها الدكتور لويس عوض وزميله ، في أحشاء التربة المعتمة والأرض الخراب . لأن هذه البذور - بصريح اعترافه - لم تر النور قط ، قبل الثورة . .

### وإذن ، نعود فنسأل :

من أين استمد الشعب زاد وعيه ونور بصيرته ورى وجدانه ؟  
الذي يسجله الواقع التاريخي ، أنه كان هناك دائماً ينبوع سخى لم يغض قط ، يمد جماهير الشعب الأمل بالري الدائم ، ويفيض عليها من منهله الصافي ما يرهف وعيها ويشحن إرادتها للنضال من أجل الوجود الكريم .

كان هناك « القرآن » مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، يتلى في البيوت والأكواخ والمساجد والزاويا ، وينفذ إلى أعماق القرى ونأتى النجوع ومعزول البرارى ، منفرداً بالسيطرة الكاملة على الضمير الشعبي الذي لم تنفذ إليه قط ، من أى سبيل ، دعوات التقدميين ومقالات التطوريين !

وإذا كانت الأمة قد فرضت على عامة الشعب ، وحيل بينهم وبين قراءة أى كتاب أو مجلة ، فقد بقي لهم كتابهم الديني ينسخ أميتهم بمدد سخى من الوعي ، ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وغشاوة العمى وغطاء الغفلة ، ويلج على عقولهم وقلوبهم بكلمات الله في حقوق الإنسان وكرامة الآدميين .

وحين كانت الأمة فاشية ، والمدارس تتجافى عن القرى والأحياء الشعبية ، وتقيد الدخول إليها بلوائح أميرية ورسوم مالية ، كانت هناك للآمين مدرستهم الكبرى تستقبلهم وهم صبية في المهد ، وتسهر على تثقيفهم وهدايتهم طوال مراحل العمر ، لا تصدمهم عنها لوائح ونظم ، ولا تحتاج لكى تؤدى رسالتها إليهم ، إلى

مبنى مدرسى أو طلب التحاق أو كشف على ، أو أى قيد آخر من قيود السن والقدرة ، والمستوى المادى أو العقلى :

### وصدقت آية الله فينا :

«هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» .

وعلى هدى ذلك النور الذى لا يخيب ولا ينطفئ ، سرى الشعب فى ليله البهيم يحدوه دعاء الحق والخير ، ليحقق وجوده الحر . . .

ومن ذلك المورد الصافى ، نهل الشعب ما نهل ، وهو يستجمع قواه ليرفض الطغيان ، ويرجم الاستعباد .

وفى هذه المدرسة ، تلقى الشعب الشحنة الثورية ، فى هدى ما وعى من كلمات الله يتلوها الأميون مصبحين وممسين ، قياماً وعوداً وعلى جنوبيهم ، تركيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة . وتفرض عليهم ، ديناً وعقيدة ، أن يرفضوا العبودية إلا لله وحده . وأن يقاوموا البغى والظلم والباطل ، وأن يغيروا ما بأنفسهم . . .

“ ”

وإلى جانب هذا النبع السخى ، كانت هناك روافد لثقافة الأميين الشعبى ؛ بعيدة أقصى البعد عن الكلاسيكيات والرومانسيات واللايتنيات والفرنسيات ، وندوات المثقفين ومجالس التقدميين والتطوريين ، ودعاة المذاهب العصرية المحدثة فى الفكر والأدب .

كانت هناك اجتماعات دورية لا تتخلف ، فى بيوت الله من المساجد والكنائس التى ظلت مفتوحة للشعب ، لم تجرؤ سلطة على أن تمارس فيها قوانينها لخطر التجمع إلا بإذن حكومى ،

وكانت هناك مجالس الذكر ومحافل الموالد وسهرات رمضان فى مضايف القرى ، حيث كان الشعب الأمى يصغى مبهوراً إلى السيرة النبوية بما حفلت به من مواقف البطولة فى الجهاد ضد الوثنية وبغى الطبقية .

وفى السيرة النبوية وفى غيرها من قصص الأنبياء وسير الصحابة والأئمة والقديسين والرهبان والشهداء ، كان الشعب يتلقى التدريب النفسى ليخوض معركته ضد الباطل

بسلاح الإيمان ، ويستكمل ذخيرته المعنوية من الثقة في النصر .

وكانت هناك أيضاً الملاحم الشعبية التي غنى فيها الشاعر على الربابة ، في الأحياء البلدية ومسامر القرى ونجوع الصعيد وبرارى الشمال ؛ وفي موالد أولياء الله الصالحين ؛ بطولات عنزة بن شداد والوزير سالم وأبي زيد الهلالي والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة . . .

إلى جانب ما شدا به أبناء الشعب على أنين السواقى ودوران الشواذيف والطنابير ؛ وهزات ” السقالة ” ونخفق الشراع ؛ من أغانينا البلدية التي صيغت من ذوب عرق الكادحين وجراح المظلومين ، ودماء الشهداء وصرير المشائق ونوح حمامة دنشواى .

## أصالة الوعي الشعبي :

إن أكن قد ألححت في بيان عزلة هذا الشعب ، في مرحلة تحفزه للثورة عن تيارات الفكر الحديث والحركات الثورية المعاصرة ، فليس ذلك إلا تأكيداً لأصالة وعيه ، وصدوره عن ينباع غير طارئة ولا مستوردة .

وأزيد الموقف بياناً فأذكرّ الناسين منا ، بأن جمهرة الشعب في المرحلة ، كانت تنظر بعين الارتباب إلى كل من يفكرون غرباً ، وربما أساءت بهم الظن فحسبتهم دعاة " فترنجة " تمسخ شخصية الأمة وتنكر ملامحها الأصيلة .

ولم يكن الأمر بحاجة إلى اضطهاد السلطات الرجعية لتيار التقدمي ، أو ائتمارها « بالهجرة العصرية والهجرة الجديدة » كما ذكر الدكتور لويس في مقاله ، فالشعب نفسه قد صد عنهما وقضى عليهما بالاحتجاب ، إذ اختلطت عنده دعوة « سلامة موسى » وتلاميذه إلى هجر الفصحى ، والأخذ بالبلاغة العصرية العامية والكتابة باللاتينية ، بالمكيدة الاستعمارية ضد العربية ، لسان قومية الأمة ولغة كتاب دينها ، كما اختلطت في فهم الشعب دعوة التقدميين والتطوريين ، بشبهة الإلحاد ... وعذره في هذا أنه لم يكن يدري عن مذهب التطور إلا إنكار الخالق سبحانه ، وأن فكرته عن المذهب الشيوعي لم تكن تتجاوز ما ذاع وشاع من جحده للدين " أفيون الشعوب "!

والمرحلة كانت تقتضى الاستبسال في النضال عن شخصية الأمة ، عقيدةً ولساناً ، ضد عوامل التذويب والتغريب ! وتحتاج إلى تعبئة كل طاقتها الروحية للجهاد والمقاومة ، فلا عجب أن وئدت الدعوات الوافدة ، وانحصرت بين فئة من مثقفي العاصمة . وتوقف التيار الأجنبي تاركاً المجال كله للتيار الديني الذي كانت له السيطرة الكاملة على الوجدان الشعبي !

ويجهل تاريخنا ، من يظن أن هذا الشعب في جمهرته العامة ، بقى جامد الضمير مخدر الحواس بصليل الأغلال ، حتى جاء دعاة التطور وأنصار التقدم فعلموه كيف يفعل وحرّكوه للثورة . .

ويجهل شخصية هذه الأمة، من يتصور أنها اطمأت إلى شيء من البضاعة الفكرية المجلوبة أو انفلتت بها وهي تتأهب للاقتحام لعنيد من العوائق التي تحول دون وجودها الحر .

فمن قبل أن تسمع الدنيا بالمذاهب الحديثة والحركات الثورية المعاصرة ، كان هذا الشعب الأُمِّي يفرض وجوده على الغزاة والطغاة من كل جنس وملة، فيحسبون له ألف حساب !

فرض وجوده ، في ظلمات العصر التركي على « نابليون » فحاول أن يستميله بتقريب زعمائه الدينيين ، بل تظاهر بأنه يريد اعتناق الإسلام ، استجاباً لرضى الشعب الأبى العنيد !

وفرض وجوده على الباب العالي ، فكان عزله وإليه « تتخذوا » خضوعاً لإرادة الشعب ، وكانت ولاية « محمد علي » نزولاً عن كلمة المشايخ الذين توسل إليهم الداهية الألباني ، بإقراره بالولاء للفلاح مصرى ، ولى عهده كما كان يقول .

وفرض وجوده على بريطانيا العظمى من اليوم الأول للاحتلال ، فلم يظأ « ولسلى » أرض مصر حتى أدع في أهلها منشوراً يع فيه باحترام عقائدهم ومساجدهم وكنائسهم ، وحتى سعى « دو فرين » مسعاه لدى السلطان لإعلان مروق « عرباني » عن الدين بخروجه على طاعة ولى الأمر !

وفرض وجوده على القصر والحاكمين بأمرهم وبغير أمرهم فيه ، فما هدأ له بال ولا قر لهم قرار ، ومرت المرحلة يعصف بها عاصف من انقلاق .

كلا ، لم يستورد الشعب زاد وعيه من خارج ، وإنما هو سيره الخالد تلقاه جيل عن جيل ، أمانة صعبة وميراثاً مفروضاً .

فالشعب الذى هزم الصليبيين وقهر التتار ، ودوخ بخبايرة ولفظ الغزاة من كل جنس وملة ؛ لم يكن بحاجة إلى من ينقل إليه مقالاً فى التطور يستثير به وعيه ، أو يستورد له شعلة ثورية من وراء السور الحديدى تشعل نخوته وتشحذ همته . وفيه ميراثه العريق تلقاه جيل عرباني عن قاهرى الصليبيين والتتار ، ثم تركه

أمانة للجيل الذى حمل لواء ثورة ١٩١٩ ، وهذه بدورها تركت ميراثها وقوداً  
لثورة ١٩٥٢ .

فلا يقل قائل إن دعاة التقدم هزوا فى الأمة ضميراً خامداً وحواساً معطلة  
ووجداناً أصم ، فلقد قامت بينهم وبين الضمير الشعبى سدود وأسوار ، إن أفلت  
منها صوتٌ صدتْ عنه الجماهير ، وانحصر فى دائرته الضيقة المغلقة ، مكتومٌ  
الصدى محتق الأنفاس .

وهذا ما نحتاج إلى تقريره وترسيخه ، كيلا تخطئنا الرؤية الكاشفة لمعالم  
خطانا نحو الثورة ، ولا تضل مقاييسنا فى تمييز الحصاد الأدبى والفكرى لمرحلة  
التحدى والغضب والتحفز .

بل لعلنا فى حاجة أيضاً ، إلى أن نلمح ما تركت المرحلة من تراثها الثورى  
فى الحديد من أدبنا ، وهو ما أحاول بيانه فى آخر هذا الحوار .

## زادنا الثقافي قبل الثورة :

في الحديث ، عن مصادر الوعي الشعبي في مرحلة التحفز للثورة ، ذكرت القرآن الكريم وكتب الدين وسير الرسل والأئمة والقديسين والرهبان والشهداء ، والأدب الشعبي على اختلاف فنونه وأنواعه .

ذلك قد كان بالنسبة للأميين الذين هم في المرحلة التي تتحدث عنها أغلبية الشعب ؛ أو بلغة الأرقام ، سبعون في المائة من أبناء البلد الأصلاء ، ليس فيهم أجنبي مستوطن ، أو دخيل متمصر .

وأحدث اليوم عن موارد الثقافة للقلة المتعلمة التي لم تجاوز نسبتها ثلاثين في المائة من السكان ، يدخل فيهم كل المستوطنين الدخلاء الذين طاب لهم المرعى زمنًا طويلاً في أرضنا الطيبة .

والقلة العددية في المثقفين لا تُهَوَّن من خطر دورهم في المرحلة ، من حيث هم الطليعة القائدة والصفوة المعبرة عن وجدان الشعب ، المطالبة بحراسة مقومات وجوده ، والاستشراف إلى أمانيه .

ولست بحيث أزعج أنى أؤرخ هنا للثقافة والثورة ، أو أستقصي الموضوع من مختلف نواحيه على وجه الدقة والاستيفاء ، وإنما غاية جهدى أن أسترجع ما وعته ذاكرتى من معالم خطانا على الطريق نحو الثورة ، مطلة على الميدان من موقفى ، الذى كان في الوقت نفسه ، موقف بضعة ملايين من أبناء البلد الذين لم يتح لهم في عهد التكوين والنشأة والتأثر ، أى حظ من الثقافة العصرية ، ولا كان لهم أى اتصال بما يشغل مثقفى العاصمة من جدل مذهبي وصراع فكري ومعارك أدبية .

أتحدث أولاً عن أولئك الذين فرضت عليهم الطبقة الثقافية أن يتعلموا في الكتاتيب والمدارس الإلزامية ومعاهد الأزهر ودور المعلمين ، وقد كانوا الجمهرة الغالبة من أبناء الشعب ، والعنصر المثقف الذى لا تعرف سواه النجوع والقرى والكفور والأحياء البلدية ، حين لم يكن لها عهد بالمدرسة الابتدائية ولا كانت بحيث تملك الوسيلة إليها .

وإذا لم يخطئى الصواب في استقراء الأرقام الإحصائية، فإن نسبة هؤلاء بلغت في عام الثورة نحو تسعمائة وثمانين في الألف من المتعلمين ، مقابل عشرين في الألف من ذوى الثقافة العصرية .

وأرجى إلى حين ، الحديث عن القمة العالية لأفرغ أولاً من هؤلاء الذين نسيهم الزميل الدكتور في مقاله عن الثورة والثقافة ، وعرفهم تاريخاً القاعدة الشعبية المتعلمة في أمة تناضل عن وجودها الحر ، وتستجمع قواها لتحطم الأغلال .

من أى الموارد ، كانت هذه القاعدة الشعبية المتعلمة تتلقى ثقافتها ؟ ماذا تعلمت في المدرسة ، وما الذى وصل إليها من الزاد الثقافى والأدبى عن طريق الصحافة والكتب والإذاعة ؟

وتعجل الكلام عن الإذاعة ، لأنها كانت بالنسبة إلى القاعدة الشعبية في هذه المرحلة ، غير واضحة الأثر ، إذ كان اعتمادها على الكهراء قبل أن يأتينا ” الترانزستور “ منذ سنوات معدودات فيقوم بالتوصيل الإذاعى إلى القرى والكفور والأحياء الشعبية ، التى تستضيء بالمسارج البدائية ومصابيح البترول .

ويسجل الإحصاء الرقمى للكهراء عندنا ، أن القرن العشرين أهلاً ، وليس في مصر سوى أربع مدن تضاء بالكهراء وهى « القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبورسعيد » وقد كانت المراكز الحضرية الكبرى بحكم استيطان الأجانب فيها !

فإذا عبرنا نصف قرن في صميم العصر الحديث وشارفنا عهد الثورة « ١٩٥٢ » لم نجد من المنتفعين بالكهراء في مصر كلها غير أربعة ملايين ومائتى ألف فرد ، كثرتهم بلا شك كانت تقيم فيما كان يُعرف بالأحياء الراقية في القاهرة والثغر ، وعواصم المديرىات وكبرىات ” البنادر “ .

فكم من هؤلاء الملايين الأربعة كانوا يملكون أجهزة ” الراديو “ ؟

وكم ممن يملكون هذه الأجهزة كانوا يعرفون لغة أجنبية تتيح لهم الاتصال بالفكر المعاصر على نطاق أوسع من الإذاعة المحلية ؟

وماذا عن السياسة الإذاعية التي كانت تخضع لسلطات الاحتلال والقصر  
والأحزاب الحاكمة ؟

أى البرامج الثقافية قدّمت ، وأى المشرفين اختارت ، وبأى المتحدثين استعانت ،  
وكم منهم من ملك حرية الصوت وأمانة الكلمة ، وعصبيّ على التوجيه المفروض ،  
وأقلت من أذن الرقابة المفتوحة وعينها الساهرة ؟

أسئلة يجب أن نستوفى الجواب عنها بأدق تفصيل وبيان ، قبل أن توضع  
الإذاعة في مكانها من التاريخ الثقافي لمرحلة التعبئة الثورية . وتلك محاولة ما أظن  
أى باحث اتجه إليها ، ممن تصدوا لتحديث عن الثورة والثقافة .

بل لم تتجه إليها - فيما أعلم - وزارة الثقافة ، على ما تهيأ لها من وسائل  
وما اتسع من نطاق نشاطها ومجال نفوذها .

فلندع الإذاعة إذن ، إلى أن يفتح الله لنا بابا ننفذ منه إلى محفوظات وثائقها  
ومخزون ملفاتها .

ولننظر في غيرها من الموارد الثقافية للقاعدة الشعبية المتعامدة من جيل التحفز  
الثوري .

\* \* \*

أما عن « المدرسة » فقد فرضت علينا الأوضاع قبل الثورة ، طبعية ثقافية  
تمثّلت في ثنائية التعليم التي تسير في خطين متوازيين لا يلتقيان :

خط التعليم الابتدائي والثانوي فبالجامعة ، وجوازُ المرور فيه من نقطة البداية  
إلى أقصى النهاية ، الاقتدارُ المالي على دفع رسوم الدراسة وأجر التعليم ونفقاته  
الباهظة .

أما أبناء الفقراء - حيث القاعدة الشعبية - فلهم طريق آخر يبدأ بالكتاتيب  
والمدارس الإلزامية ومنها إلى المعاهد الأزهرية ومدارس المعلمين الأولية ، أقصى  
شوطٍ يوقف عنده طموحُ الطامحين مناه وكفاح الأذكياء الموهوبين .

والبيئة التعليمية في مدارس الشعب المجانية ، مختلفة تماماً عن بيئة المدارس التي  
بمصرفات ، أعنى الابتدائية وما بعدها . وهذه مختلفة أيضاً عن مدارس الإرساليات

الأجنبية التي كانت تمارس نشاطها الثقافي بمصر قبل الثورة ، دون رقيب أو حساب .

وأظننى هنا أستطيع أن أستوفى الحديث عن «المدرسة» دون حاجة إلى مراجعة المناهج . فلقد أتاحت لى الظروف أن أتلقى العلم أولاً فى الكُتّاب والبيت على المنهج الأزهرى ، ثم أتممت دراسة المواد المقررة على مدارس المعلمين والمعلمات الأولية قبل أن أعود فأبدأ الطريق الآخر من أوله وأتعلم ما أجتاز به امتحان الشهادات الابتدائية والثانوية الموصلة إلى الجامعة . فكأنى بذلك قد استوفيت قدراً كافياً من الدراية بمناهج التعليم فى ثنائيته المزدوجة، بل فى ثلاثيته الشاذة ، إذا أضفت إلى ذلك كله ما أتيج لى من اتصال بالمدرسة الأجنبية فى مصر قبل الثورة ، عندما عُيّنَت عام ١٩٤٢ مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ، فكان عملى أن أفتش على مدارس الإرساليات والبعثات الدينية الأجنبية ، فاكتملت لى بذلك رؤية الصورة بكل ملامحها المتناكرة وظلالها المتنافرة .

لقد كنا نذهب إلى الكتاتيب والمعاهد الأزهرية أو إلى المدرسة الإلزامية ودور المعلمين والمعلمات الأولية ، فنقطع الشوط كله دون أن نتعلم حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، أو نشاهد أى جهاز من الأجهزة العلمية، أو نسمع عن تجربة من التجارب العملية .

على حين كان تلاميذ المعاهد الأجنبية لا يكادون (يفكون الخط) العربى . والآخرى فى المدارس الأميرية بمصر وفات، يتعلمون الإنجليزية من السنة الأولى الابتدائية ثم يضيفون إليها الفرنسية فى المرحلة الثانوية ، ويتلقون دروس الطبيعة والكيمياء فى المعامل المزودة بالأجهزة العلمية، والتي لم تكن تخلو منها مدرسة ثانوية . ومدارس المعلمين الأولية كانت المصدر الوحيد الذى يورّد لمدارس الشعب الحجابية معلميهام ومعلماتها ونظارها وناظراتها . ومعاهد الأزهر الدينية كانت المصدر الوحيد الذى يخرج وعاظ المساجد وأئمتها . وطبيعى أن هؤلاء وأولئك كانوا لا يملكون أن يفتحوا أمام تلاميذهم أى منفذ يطلون منه على العلم الحديث والثقافة العصرية ، فذلك كله حظ المدارس الابتدائية والثانوية، التي كانت هيئة التدريس فيها من حملة الشهادات العالية .

فإن يكن قد تسرب إلى القاعدة الشعبية المتعلمة شيء من ذلك ؛ فعن طريق من استطاع من أبناء الفلاحين الوصول إلى معاهد التعليم العصري بالعاصمة ، أثناء عطلتهم الصيفية في القرى ، ولؤلؤاء حديث يأتي بعد حين . ثم عن طريق الصحافة والكتاب . مؤلفاً بالعربية أو مترجماً إليها .

\* \* \*

وحين نذكر الصحافة مصدراً لثقافة المعلمين وأدباء المرحلة ، لا يمكن أن نسقط من حسابنا الصحافة اليومية التي لم يشر إليها الزميل في مقاله ، من قريب أو بعيد . وهو بحيث لا يجهل الدور الخطير للصحف اليومية في سعة انتشارها وامتداد أثرها إلى عامة المعلمين الذين تعيش كثرتهم في الأقاليم والأحياء الشعبية . ومعروف لنا تماماً ، أن الصحافة اليومية في ماضيها القريب إلى عصر الثورة ، كانت تهتم بالمادة الأدبية والثقافية وتفسح لها من صدرها ما قد تضيق به صحافة اليوم التي هي صحافة إعلام وإعلان ، إن اتجهت عنايتها إلى شيء من أدب أو فن ، قصرته على أعداد أو ملاحق خاصة ، كيلا يجور على مكان الإعلان والخبر .

وأحسب أننا لسنا في حاجة إلى انتظار بيان إحصائي عن صحف المرحلة وعدد نسخها ونطاق توزيعها وما قدمت من مادة أدبية وثقافية ، لنذكر أن صحيفة ( كالأهرام ) مثلاً كانت تصل إلى مئات ألوف من قراء القاعدة الشعبية ، لم يسمعوا بمجلة التطور أو المجلة الجديدة أو أبولو ومجلتي ، وهي المجالات التي ذكرها الزميل . أعلاماً ثقافية للمرحلة .

ومن هؤلاء الألوف من قرأوا ( السياسة الأسبوعية ) وكان لهم منها زاد ثقافي لا يجحد . بل إن من المجالات التي نسيها الزميل ما شارك في تقديم مادة ثقافية عصرية أكثر مما فعلت المجالات التي احتنى بها وهو يقدم الحصاد الثقافي للمرحلة ، وحسبي أن أشير إلى ( مجلة المقتطف ) التي أتاح لها طول عمرها وطاقة جهازها ومستوى تحريرها ، مجال نفوذ ثقافي لم تصل إليه مجلات ولدت وتموت .

وأعلام كتّاب الجيل قد اتصلوا بالرأى العام-الثقافي عن طريق الصحف اليومية والمجلات المعمرة ، أكثر مما اتصلوا به فيما ألقوا من كتب : فقراء «المازني»

في البلاغ ، لا يقاس بهم من عرفوه في "إبراهيم الكاتب ، وقبض الريح ، وحصاد المشيم" وقراء "حديث الأربعاء" مقالات في السياسة الأسبوعية أكثر ممن قرأوه كتاباً مطبوعاً . وما تزال هذه الظاهرة تصدق على مرحلة الانطلاق الثوري : فما من كاتب ذى شأن ذكره الزميل في مقاله ، لم تكن الصحافة منبره الأول للاتصال بال جماهير ، وإذا كانت مسرحية لتوفيق الحكيم يشهدها رواد مسارح القاهرة ، ويقرأها مطبوعة بضعة آلاف من القراء ، أو كانت قصة لنجيب محفوظ يطبع منها بضعة آلاف نسخة ، فإن صحيفة (الأهرام) تقدمهما إلى نحو مليون قارئ على أوسع نطاق ، وتتجاوز بهما العاصمة إلى أعماق الريف ، وتنحط لهما حدود الوطن العربي إلى بعيد الأقطار .

ولا يعنى هذا بحال ما ، أن (الكاتب) لم يقم بدوره الثقافي الخطير في المرحلة ، ولكنه مجرد التفت إلى ما غاب عن الزميل وهو يستقصي الحصاد الثقافي للمرحلة ، فيسقط الصحافة اليومية وكأن لم يكن لها قط وجود ! .

• • •

وأراه فيما يتصل بالكتب تعجل الحصاد فلم يذكر إلا بضعة كتب كانت معروفة لخاصة المثقفين دون الجماهرة من أبناء الشعب . وكنت أؤثر له أن يتمهل ريثما يستكمل الإحصاء المصنف للكتب التي ظهرت في "مرحلة الفراغ الرهيب" المحدد لعدد نسخها وطبعاتها . أما وقد اكتفى بفكرة له عن الكتب مطالاً على الميدان من زاوية ثقافته ومطالعاته ، فالذى أعلمه يقيناً أن المؤلفات الإسلامية كان لها الحظ الأوفى من إقبال القراء ، والمكان الأول في مكتبة المرحلة ، لم تنافسها فيه كتب ألفت في أى مجال آخر للثقافة أو الأدب !

ذلك لأن جماهرة المتعلمين من أبناء الشعب ، كانت تطلب زادها الثقافي في المؤلفات التي تستجيب لما في فطرتها من تدين ، وتلاطم مناخها الفكرى . وهذا هو ما يفسر لنا ظاهرة التحول الأدبي لعدد من كبار كتابنا: بدأوا بما حسبه جذاباً وطريفاً من موائد الثقافة الغربية القديمة أو حديثة . بل إن منهم من حمل لواء الدعوة إلى ترويح الأدب اللاتيني واليوناني أو الفرنسي والسكسوني ، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى الموضوعات الإسلامية يؤلفون فيها ويعتمدون عليها في كسب شهرتهم

على المستوى الشعبي ، وعلى مستوى الوطن العربي والعالم الإسلامي الرحب .

وليت شعري كم يكون عدد قراء « ألكترا » أو « عبقرية ابن الرومي » أو « جان جاك روسو » بالقياس إلى عدد قراء « على هامش السيرة » والعبقریات الإسلامية و « حياة محمد » عليه الصلاة والسلام ؟

ومن قبل ، بدت الظاهرة نفسها في « إسلاميات » شوقي و « نحرية حافظ » والرصيد الضخم من الشعر الإسلامي لشعراء الجيل . ومن عجب أن يقول الزميل الدكتور لويس في حديثه عن الفراغ الرهيب إلى عام الثورة : « وإذا أردت أن تدرك مدى هذا الفراغ الذي حل بالأدب بين ١٩٣٦ و ١٩٥٢ فنذكر أن المنفلوطي وحافظ وشوقي ومختار كانوا قد ماتوا في العشرينات والثلاثينات ، وأن محمد السباعي ومصطفى صادق الرافعي وزكي مبارك ، كانوا قد كتبوا أهم آثارهم قبل سنة ١٩٣٦ » .

كأن الأثر الأدبي يموت يموت صاحبه ! لقد ظننت أن الزميل ما اشتغل بأدب شكسبير أو أرسطوفان مثلاً ، إلا وهو يحس فيهما نبض حياة وقد رحلا عن الدنيا منذ قرون وأدهار ، فكيف لا يحس نبض الحياة في شاعر كشوقي أو كاتب كالرافعي أو أديب كالمفلوطي ، وهم منا وفينا ؟ إن الذي مات سنة ١٩٣٦ هو أحمد شوقي المخلوق القاني ، أما الشاعر شوقي فما يزال ملء الحياة فينا نشدو بقصائده غناء ونشيداً ، ويعرفه عامة المتعلمين من أبناء الشعب كما لا يعرفون أحداً ممن عددهم الزميل شعراء مرحلة الازدهار الكبير .

ويا ترى هل كان قراء « فاوست » و « جراتزبيل » في جيلنا ، أكثر من قراء « عبرات » المنفلوطي و « نظراته » و « تحت راية القرآن » للرافعي ؟

ما زلت أقول إنني لا أغفل عن القمة العالية للثقافة ، وإنما قصرت الحديث حتى الآن عن القاعدة الشعبية ، أمة و متعلمة .

وأنظر في المناخ الفكري للمتقنين منا ، مرحلة التحفز الثورى ، فأرى الزميل قد اهتم في مقاله ، بالحصاد الأدبي والفد البيئات الفكرية التي عاش فيها أدباء المرحلة ود وجدانية لا يهون إغفالها .

وتاريخنا يسجل أن « الأزهر » قد كان له عشرة قرون ، مركز الثقل في حياتنا السياسية والفكرية ، فهل مرت به المرحلة . انتهى زمانه وتعطل سلطانه ، فلم يبق منه إلا أثر متخني يزار ، وذكرى لماضي لي وراح ؟

و « الجامعة » التي كانت مناط أمل القادة ن رواد اليقظة ، أقاموا صرحها فينا لتكون مناراً فكرياً للأمة في معركة الوجود اح . هل مرت بها المرحلة لم تشعر بمكانها ، ولا أحست لها أثراً بالسلب أو الإيجا ؟ ذلك ما لا يهون تصوره ، ولا هو مما يصح . منطق العقل ، وشهادة الواقع التاريخي . . .

فالأزهر يظل دائماً ، كالعهد به لمدى ق ن ذات عدد ، صورة للثقافة الإسلامية حسب ما يتطلبه كل عصر : دافعة أو معوقة ، حية أو جامدة .

وكما كان الأزهر مجال جهود المصلحين -ين أرادوا إصلاح حياة الأمة الإسلامية بالدين ، كان في الوقت نفسه مشغلة لحكام ممن أرادوا تجميد الفكر الديني وتعطيل حيويته ، وذلك بحكم الاتصال الحث - بين السياسة في بلدنا والدين . .

ولست أمضى مع بعيد الذكريات ، فأر - ما كان للأزهر في تاريخه الطويل من دور خطير في الصراع المذهبي والسياسي والفكري للأمة ، بل أقف عند المرحلة التي تعيننا الآن ؛ لأطل على مكان الأزهر في وجودنا القومي والثقافي .

. . .

لم تكن السلطة الحاكمة من قصر الدوبارة ، إلى قصر عابدين أو رأس التين ، قد نسيت قط أن هذا الأزهر مركز المقاومة الوطنية في عهد الاحتلال الفرنسي . . .

ولا نسيت أن « محمد علي » رأس الأسرة الحاكمة - أمة الحنظل - أو شجرة الحنظل

كما سماها مؤرخنا الجبوتي - يدين بسلطانه لما أسبغ شيوخ الأزهر على ولايته من شرعية دينية وتأييد شعبي .

بل لم تكن نسيت أن الأزهر شارك بنفوزه ورجاله ، في ثورة عرابي الشعبية التي هزت الحديد وحماته الإنجليز هزاً .

فكانت المحاولة الجاهدة للاستئثار بالسلطان على الأزهر ، يستقل القصر بالإشراف عليه والاتصال به وتوجيهه وتعيين رجاله أو عزلمه ، ويتدخل لمقاومة كل حركة إصلاحية تنبعث من الأزهر أو تتجه إليه .

وتدخلت الأحزاب تلتمس وسياسة نفوذ إليه ، بل تدخلت سلطة الاحتلال بتبغى تأمين مركزها ، فاحتفلت بلبلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، ودعت شيوخ الأزهر لحضور ذلك الاحتفال الديني الكبير في قصر الحماية !

وما كان الأزهر ليشغل هؤلاء أو أولئك لو لم يكن بيثة ذات نفوذ خطير ، أثراً لسيادة الطابع الديني الذي فرض وجوده على السلطة ، فكان طلب العلم في الأزهر ، مهرياً من السخرة في عهود السخرة ، ومخلصاً من " الجهادية " أيام كانت تُفرض على من لا يملكون ، من أى سبيل ، تدبير واحد وعشرين جنيهاً فدية إعفاء من الخدمة العسكرية . كما كان الأزهر كذلك مفتوح الأبواب لطلبة العلم ( المجاني ) مع الظفر بجرارية يومية من الخبز تقيم أود الذين لا يجدون الرغيف . ثم هو طريق إلى نيل شيء من الحرمة والكرامة في عصر ضراوة الطبقية؛ بالمهابة التي يضيفها العلم الديني على حمّلتة ، في المجتمع الشعبي .

ثم إنه كان الذي يُورّد إلى الشعب وعظّاه ومرشديه ومعلميه ، ومنه كان يخرج رسل الثقافة الدينية إلى شتى أقطار العالم الإسلامي الرحب .

وقد بدأت المرحلة وانتهت ، والأزهر حيث هو : مشغلة الحكام ومعترك الأهواء السياسية والحزبية ، والبيثة الفكرية الكبرى التي لا يمكن تجاهلها في رصد معالم ثقافتنا والثورة ، ولا الغفلة عن مكانها في الركب ، ومركزها في الموقعة ، وأثرها في عقلية الجمهرة من شباب الجيل ومناخها الفكرى .

وفات الزميل كذلك ، أن يلتفت إلى « الجامعة » وقد عاش في رحابها أكثر سنوات المرحلة التي قدم حصادها الثقافي والأدبي .

وكلية الآداب التي تخرج فيها الزميل ، كانت بوجه خاص ميداناً لصراع مرير عنيف بين الشخصية المصرية وبين الغزو الفكري والاستعمار الثقافي . مما يجعلها جديرة بأن تكون مرصداً حساساً نطل منه على الأفق ، لنفهم طبيعة المرحلة .

فبقدر ما عزلت الظروف والأهواء « الأزهر » عن حياة العصر ، وحاولت أن توصل أبوابه ونوافذه في وجه العلم الحديث والفكر المعاصر ، فتحت أبواب « كلية الآداب » للغزاة الثقافيين ، ومكنت لهم من مراكز النفوذ فيها والتوجيه . .

بقدر ما حطت الرجعية بكل ثقلها على « الأزهر » لتعويقه عن أداء رسالته الكبرى في إصلاح الحياة بالدين ، حط الاستعمار بكل ثقله على « كلية الآداب » بالجامعة المصرية ، لأنها الكلية التي تختص بدراسة شخصية الأمة ؛ في تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعتها إقليمياً وآثارها ، وأدبها القديم والحديث ، وما تلتقت وتتلقى من روافد حضارية وفكرية : شرقية أو غربية ، عريقة أو مُحدثة . .

ولم نكن نحن طلاب المرحلة صُماً وعمياناً ، فيفوتنا وعى ما احتدم هناك من صراع ، كانت عقولنا وقلوبنا وضائرتنا ميداناً له :

صراع قومي ، تمثل في الدعوة الجريئة الجهرية التي حمل لواءها أستاذنا « أمين الخولي » إلى تمصير الكلية ، وقصر اختصاص الأساتذة الأجانب فيها على المجال العلمي ، حين كانوا يرأسون أقسام اللغات الأوروبية القديمة والحديثة ، وقسم الآثار المصرية والإسلامية . ويمثلون هذه الأقسام في مجلس الكلية ، بالإضافة إلى عضوين أجنيين من خارج الجامعة . وتتدخل السفارات الأجنبية في ترشيح كل هؤلاء ، بل تتنافس على شغل الكرسي الذي يخلو من كراسيم وتعد السفارة نجاحها في ذلك عملاً سياسياً من الدرجة الأولى . وقد سجلت محاضر مجلس كلية الآداب ، جولات هذه المعركة حول تمصير الكلية ، من يونيو ١٩٤٧ إلى جلسة ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧ .

وصراع حزبي ، بين من أرادوا صيانة استقلال الجامعة من عبث الأهواء الحزبية وفي مقدمتهم معلم الجليل : «أستاذنا أحمد لطفى السيد» وبين من جعلوها مناطق نفوذ لهم .

وصراع مذهبي وعقيدى ، احتدم فيه الجدل بين إخوان وماركسيين ، وعنفت الخصومة بين عشاق الثقافة الأجنبية والفكر الغربى ، وبين المتعصبين لثقافتهم العربية وفكرهم القومى .

والحياة العامة من حولنا تغلى وتهدر ، فتسلفنا فى موجها المصطخب وتجذبنا إلى دوامة المعركة .

• • •

وعلى امتداد المرحلة ، من عام معاهدة ١٩٣٦ إلى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ؛ ظلت الجامعة تغذى الأتون الملتهب بوقود من حمية شبابها ؛ وتورد إلى السجون والمعتقلات فوجاً بعد فوج من طلاب جيلنا الذى استهل عامه الأول فى الجامعة بمصرع شهيديه « عبد الحميد مرسى ، وأحمد عبد الحكيم الجراحى » .

وأساتذة هذه المرحلة ؛ جيل ثورة ١٩١٩ . . . .

وأساتذتهم هم جيل ثورة مرابى . .

وظلابها ؛ هم الذين يشغوا مراكز الفكر القيادية والمناصب العلمية والفنية بمصر منذ عام الثورة ١٩٥٢ ؛ هم مفكروها وأساتذة جامعاتها ومعلمو مدارسها ، ومنهم علماءها وأدباؤها وخبراؤها . وكتاب صحافتها والمشرفون الثقافيون على إذاعتها فلكى نورخ للثورة والثقافة ؛ ينبغى أن نستقصى نبأ الذين علمونا بكل دقة وتفصيل : فى أى المعاهد تخرجوا ؛ وأين نشأوا وتربوا ؛ وأى المذاهب اعتنقوا ؛ وماذا ألفوا من بحوث ودراسات كاشفه عن المناخ الفكرى الذى تنفسنا فيه ؟

وأن نستقرئ مع ذلك كله تواتر المرحلة الأدبى والفكرى ، ونرجع إلى الوثائق المدونة لمحاضر مجالس الكليات والجامعة ، بما تضىء لنا من ملامح هذه البيئة التى شاركت فى صنع الجليل المعاصر من المفكرين والمثقفين والأدباء . وقد سجل الإحصاء أن عدد طلاب الجامعة عام الثورة ، قد بلغ ثمانية عشر ألفاً ، سبقتهم ألوف

وألوف ، ممن تخرجوا في الجامعة والمعاهد العليا على مدى ربع القرن المنتهى  
بعام ١٩٥٢ .

• • •

وبعد فما زلت أقول :

إن الجيل الذي وُلد في عهد الثورة ، لم يبلغ بعدُ من العمر سوى بضعة عشر  
عاماً ، وسوف تمضي أعوام مثلها وأكثر ، قبل أن يشارك هذا الجيل في صنع  
حياة الأمة ويحمل أمانة وجودها . فن شاء أن يميز معالم خطواتنا نحو الثورة ،  
فليقف طويلاً عند المرحلة التي سبقتها وأعدت لها ، وليتمسك هناك كل الينابيع  
التي أمدت أبناء الشعب ، أميين ومثقفين ، بزادهم من الوعي .  
من شاء أن يجمع الحصاد الثقافي والأدبي للثورة ، فليبدأ بالرجوع إلى البيئات  
المختلفة التي أنبتت كل هؤلاء الذين ناضلوا ويناضلون في معركة وجودنا الفكري ،  
وليتمسك لديها التفسير التاريخي لسير الحياة بنا ما بين أمس واليوم .

خاتمة : قبل ، وبعد .

لعل الذين يحسبون أن الأعوام التي سبقت الثورة ، كانت مرحلة عقم فكري وفراغ وجداني ، يستغربون أن أقرر أنها لم تكن فياضة بالحياة فحسب، بل لأنها ما تزال أيضاً تقدم لأدبنا الحديد مادته الثورية ، فما هو بقادر على أن يستغنى عن طول الالتفات إليها والتماس الوحي منها !

لكن هذا الذي يبدو لم غريباً ، هو ما يشهد به الواقع ، باستقراء الرصيد الأدبي والفني بعد الثورة ؛ حيث لا نخطئ في أكثره ، لمح ذلك الأثر الباقي ، يحوم حوله أدياء اليوم ، بحيث ينذر فيهم من لا يجتر مآسيه ويتفنن في وصف أوضاعه ومخازيه ، ويطيل الوقوف على أطلاله الدراسات !

يصدق هذا على كتاب القصة والمسرحية ، كما يصدق على الشعراء : المحافظين والأحرار . . .

ومن هؤلاء الأدياء ، من اكتفى باجترار المآسي أو المهازل ، فانتقل بوجوده إلى الأمس الذي ولى وراح ، وتكلف معاناة الانفعال بأوضاع عني عليها الزمان ، ووقف بالأطلال باكياً أو مستبكياً ، يستنطقها ذكرى السنين الخوالي ، بكل ما حفلت به من بؤس ، وما وعت من أصداء لصليل الأغلال وأنين المعذنين وجوار المظلومين . . .

وإلى هذا الصنف : تنتمي كل القصص والقصائد التي ألفت بعد الثورة ، تروى مأساة الإقطاع ، وتلحن مصاصي عرق الكادحين من الفلاحين والعمال . كما تنتمي كل المسرحيات التي إن سخرت فبأوضاع الماضي ، وإن بكت واستبكت فعلى ضحاياها !

• • •

وهناك فريق آخر ، اختار موقفه الثابت عند معبر التحول : يقارن بين أمس واليوم ، ويسجل أثر الانتقال من عهد الأسرة الألبانية إلى عصر الثورة ، ويصف ظلمات الليل عندما نسختها آية النهار .

وهؤلاء هم مؤلفو القصص والمسرحيات التي تبدأ فصولها الأولى بعرض مأسى مما قبل الثورة ، ثم تَمْضى بها حتى تنحل تلقائياً بالحدث الثورى .

بل إن الكثرة من كُتّاب المقالات ، قلما استغنوا عن استلھام الماضى ؛ فهم كذلك بين مجترٍ لما سیه ومهازله ، ومسجل لأثر التحول الثورى على أوضاعه ومخازیه . يستوى فى ذلك غالباً ، جمهرة من يكتبون المقال السياسى ومن يدبجون المقال الاجتماعى أو الأدبى ، وإن اختلفت الأساليب وتنوعت الأنماط وتعددت وجهات النظر . . .

وهذه الظاهرة - وأسميها ظاهرة الاجترار - شاهد على ثورية المرحلة التي عبأت القوى الشعبية للجولة الفاصلة في تاريخ نضالنا القوي ، ودليل على حيوية طاقتها وامتداد نفوذها وآثارها ، وإلا لما بقيت حتى اليوم مصدراً سخياً لانفعال الكتاب ، بل إنها لتبدو أحياناً وكأنها النبع الوحيد الذي يعتصر منه فيض الإلهام كثرة من حملة الأقلام وأصحاب الفن الأدبي .

ولطالما خطر ببالي وأنا أتتبع أثر الظاهرة في أعمال كثير من أدبائنا ، أن أسأل :

ترى ماذا يكون حالهم عندما ينضب النبع لطول ما اغترفوا منه ؟

أغلب ظنى أنهم سوف يعودون على بدء فيكررون نفس المأسى والمهازل بصورة أو بأخرى ، كأن يغيروا أسماء الأشخاص وأماكن الأوضاع ، أو يعيدوا صياغة ما كتبوه مرة أو مرات ، مع شيء من التعديل .

\* \* \*

وحين نلتمس تفسير هذه الظاهرة ، نجد الأمر فيها غير غامض ولا مستغلق على الفهم :

فالمرحلة التي سبقت الثورة ، كانت تواجه أعنف أزمت التحدى ، ومن شأنها أن تستثير الطاقة القصوى من يقظة الضمير وانفعال الوجدان .

وطبيعى أن يحرص كُتّاب هذا الجيل على أن يكونوا ثوريين ، كيلا يفقدوا حيوية أقلامهم وحرارة كلماتهم . وفيما يبدو ، قد أعوزهم في الحاضر ، ما يثورون عليه ،

بعد أن شهدوا أن الإجراءات  
فمن أين لهم إذن ، الحافظ الثورة  
بحرارة اللهب ؟

قله منهم تجاوزت هذا الواجب ، ومدت بصرها إلى حيث كان الطاعون الصهيوني  
ناشباً في صميم كيان الوطن .  
ثرة شغلوا عما وراء الحدود ، فلم يبق أمامهم ،  
ليكونوا ثورين ، إلا أن يرجع  
الاجترار المستمر لأوضاعه ،  
المدمن على أطلاله لاسترجاع ذ  
ياته المثيرة ورؤاه الحزينة ومضحكاته المبكيات !  
وهذا هو ما قصدت إليه .  
ين قررت أن المرحلة الماضية ، هي التي لا تزال  
تسخو على أدينا الحديد بأكثر ماداته الثورية !  
وذلك وحده يكفي ، لينقى منها صفة الجذب والعقم والفراغ .

\* \* \*

وفي الحق أن بين كتاب ايوم ، من عاصروا الماضي بكل أوضاعه وعابنوا  
المأساة في واقعها الفاجع ، لكنهم لبثوا صامتين يتفرجون على الأحداث دون أن  
ينفعلوا بها ، أو انفعلوا ولم يجرؤوا على المجاهرة بالتمرد عليها ، حتى جاءت الثورة  
فحررتهم من الخوف والمداراة ، وأطلقت المكبوت من انفعالهم ، فصالوا بأقلامهم  
في الميدان الأدبي وجالوا ، وغمروا المسارح والمطابع بفيض من نتاجهم . . .  
وعلى هؤلاء وحدهم ، يصدق حكم القائلين بانطلاق الأقلام - بفضل  
الثورة - بعد جمود ، والازدهار الفني بعد فراغ ، والخصب الأدبي بعد عقم  
وجذب !

لكن التاريخ لا يعد أمثال هؤلاء ، بين أدياء الثورة ، ولا يخلط أعمالهم  
المتأخرة بحصاد الأدب الثوري ، وهم لم يشاركوا بكلمة في التعبئة الوجدانية  
لمرحلة التحدي والغضب ، ولم يرفعوا قط صوتاً يحدو الركب في مسراه نحو الفجر  
الحديد ، بل تواروا عنه ينتظرون ، حتى إذا ما انحسر الماضي وولى إلى غير رجعة  
أو مآب ، ضجوا بالثورة عليه .

إنما يلتبس التاريخ أدب الثورة عند قوم آخرين ، انصهر وجدانهم في بوتقة المساة ، وأرقت ضمائرهم محنةُ البغي ، فما استطاعوا انتظاراً ولا أطاقوا عليه صبراً ، واندفعوا يرحمون صروح الطغيان حين كانت تتعالى شامخة ، ويلعنون الإقطاع وهو في إبان ضراوته ، وسهروا الليل الطويل بوجدان غاضب نائر ، وأقلام لا تنام .

\* \* \*

وكذلك الأمر فيما بعد الثورة :

بين الاجترار والمتابعة ، طال وقوف أدبنا في أكثره بأطلال الماضي ، وطاب له موقفه المريح وراء الأحداث بعد الثورة ، حين كان ينبغي أن يسبقها ليرتاد لها الطريق ، بكل أبعاده ومنحنياته ومخاطره .

وعلى مدى خمسة عشر عاماً بعد الثورة ، شُغل أدبنا بما كان عما سوف يكون ، واستمرأنا نشوة الطرب ومتعة الحلم بأن « ليس في الإمكان أبدع مما كان » فلم نلمح نذر الكارثة حتى كانت ذئاب صهيون قد استأسدت ، واندفعت تجتاح الجحى وتعيث في أرض الرسائل بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر .

\* \* \*

ونحن الأفراد الذين يتصدون للحكم في قضية الأدب والثورة ، نسهو على تطاول المدى ، فينسينا الذي كان ، كرَّ الليالي ومر الأعوام . وقد تفضل مقاييسنا فيخطئنا التمييز بين زائف وأصيل ، لكن للتاريخ ميزاناً حساساً لا يختل ، وذاكرة واعية لا يفلت منها شيء ذو بال .

\* \* \*

وبعد فإني أعود على بدء ، فأؤكد ما قلته في مقدمتي لهذه المحاضرات ،  
من أن الموضوع مجال لاختلاف وجهات النظر ، ومفتوح لجديد يقال ،  
وبخاصة فيما لم تتوفر لنا بعد مادته ونصوصه ، من أدب معركة التحرير الكبرى التي  
نحتشد لها ، موقنين أنها معركة الشرف والوجود والمصير .

وإذا كان ما قدمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ، عن أدبنا القديم ، يمكن  
أن يكون مشتركاً بين أقطار وطننا العربي ، فإن الذي في الجزء الثاني ، عن أدبنا  
المعاصر ، يحتاج إلى إضافات هامة أرجو أن يقدمها الزملاء الدارسون في مختلف  
الأقطار العربية ، استكمالاً للملامح الصورة التي تجلوا أدبنا المعاصر في واسع  
رحابه وامتداد أبعاده ، واستيعاباً لمواقع نضاله في معركة وجودنا الحر .

\* \* \*

ثم يبقى بعد ذلك ، ما تضيفه المرحلة الحاضرة من قيم وموازين لأدبنا الذي  
تفرض عليه الحياة أن يأخذ موقعه في معركة وجود الحر ، ويستجيب لما في ضمير  
الأمة من إصرار على رفض الهزيمة والعار ، ويحدو جهادها المقدس ضد قراصنة  
العصر من لصوص الحرية وأعداء الإنسان .